الطبعة الثانية

عبد الغني ملوك

مجامر الروث

رواية

الكتاب مجامر الروث

الكاتب عبد الغني ملوك

مجامر الروث

رواية

هو ذا الزارع قد خرج ليزرع .. وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق.

فجاءت الطيور وأكلته وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة. فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس.

احترق. وإذ لم يكن له أصل جف. وسقط آخر على الشوك، فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمراً. بعض مئة.

وآخر ستين، وآخر ثلاثين.

إنجيل على الإصحاح ١٣

(١)

ربما من المدهش أن يكون للإنسان موقف من كل شيء: من الحياة، ومن الكتابة، وحتى من العادات موقف صارم لا يتمتع بالمرونة ومن المؤلم له أن لا يعثر على من يفهمه أو يقدره إلا من القليل النادر، ليجد في النهاية أنه يسبح ضد التيار. هل عليه أن يغير ويقنع نفسه أن ذلك نوع من التلاؤم الذي لابد منه، من أجل الاستمرار؟ أم عليه أن يقف دون فكره مدافعا على أمل أن القادم من الأيام، هو من سيغير الآخرين ليقروا بصواب أفكاره وصحة منطلقة ولكنه في هذه الحال سيدفع أثمانا باهظة ويتعرض ربما

إلى مأس وانكسارة هذا ما حصل لياسر الخوخة في مسيرة حياته المليئة بالمفاجآت، وتعرض لأشد أنواع الخيانات؛ فذاق مرارة الغدر.

كان ياسر الخوخة تلميذاً ذكياً نجيباً، وكان ترتيبه الثاني عد أخيه زهير، الذي يكبره بخمس سنوات والذي لم يتابع راسته بعد (البكالوريا) وفضل العمل مع أبيه في الاستيراد التصدير. وكان التناقض بيناً وواضحاً بين الأخوين بشتى المناحي.

فالكبير زهير شيره المصلحة، فيعبد المال وسلاحه المراوغة والقدر، وياسر ثائر و (رومأنتيكي) مثالي وإنساني طوباوي يتمنى أن تسود العدالة بين الناس، والأب الذي اكتفى بولدين خشية تفتت الثروة كان يراوح ويزاوج بين حب المال، وبين شيء من المثالية فلم يعدم من فعل الخير.

ورغم أن باسر، عاش في أسرة ثرية موسرة، إلا أنه اعتنق فيما بعد اليسارية المتطرفة، وأنتسب للحزب الراديكالي اليساري

كان أبوه تاجراً، يستورد الأدوات الكهربائية والساعات من الخارج، ويبيعها للتجار فهو تاجر جملة ومستورد. وقد حقق من وراء ذلك أرباحا طائلة، فكثرت معارفه، وشارك بعض أولي النفوذ.

وكان لياسر ابن عم له، يكبره بعقد أو أكثر، هو يونس الخوخة، الذي كان له تأثير كبير في حياة ياسر وتكونه، ويونس الخوخة هذا، عانى اليتم المبكر وتربى في الميتم، ثم أنتسب إلى الحزب الراديكالي اليساري بعد خروجه من الميتم إلى الحياة سفيراً. وقد نشط وكافح حتى جاء يوم استلم درجة في التنظيم

عالية نائب الرئيس التنظيم في القطر. كان صياد رجال، وخبيراً

بالنفس البشرية لأنه عاش حياة اجتماعية منذ بدء تكونه، وعاشر

مختلف الصنوف البشرية وخبرها، فصار يعرف من أين تؤكل الكتف وقد وجد يونس في ياسر من النجابة والذكاء ما جعله يطمع في ضمه إلى التنظيم ليكون عوناً وظهيراً له، فيما سيأتي

من أيام. وأعد لهذا الهدف خطف فكان يأتيه بالكتب والأدريات العربية والنشرات التي تبحث وتشرح أفكار حزبه، ونظريته لاقتصادية والاجتماعية، ومنطلقاته النظرية والتنظيمية.

ومكان ياسر يومها في المرحلة الإعدادية، وداوم على صداقته وكثرت زياراته له، وفي كل مرة بدلي إليه بالتوجيهات، حتى نال ه المطلقة، وصارت أفكاره ونصائحه منزلة وشجعه على دراسة الفلسفة بدل الطب، وكان أبو ياسر يرغب في أن يصبح ابنه طبيباً وقد صرح بذلك في أكثر من مكان، ففكر يونس بأن أفضل طريق لجعل أمنية الأب مستحيلة التحقق أن يقنع ياسر بالأنتقال: من الفرع العلمي إلى الفرع الأدبي. ولما سأل ياسر يونس عن

الهدف، قال: له:

. إذا أردت أن ترضي ضميرك، أنتقل للفرع الأدبي فموهبتك أدبية ولا ينميها ويظهرها سوى الفرع الأدبي، ولكون ياسر يثق الثقة العمياء برأي يونس وافق على رغبته فوراً دون إعمال رأي أو الرجوع لأبيه أو حتى مفاتحته بالأمر عمل بنصيحته وقبل طلبه

فأنتقل ياسر الخوخة من الفرع العلمي إلى الفرع الأدبي، ولم يفلحواله، الذي علم بالأمر فيما بعد، في ثنيه عن هدفه هذا ، فضمن يونس عدم مغادرة ياسر للخارج من

أجل دراسة الطب. ولأن أباه ثرياً، كان لابد من أن يوجد شرخا بينه وبين أبيه. فكرمه بالمال وبالموسرين الذين هم أعداء الحزب

وقال:

هؤلاء البرجوازيون أعداؤك وأعداء الوطن لأنهم استغلاليون وسبب على مجتمعنا المال أساس الشر الم تسمع ما قال:ه المسيح

فيهم؟

ماذا قال:؟

. لكن يدخل الفيل في سم الخياط، أهون من أن يدخل غني

ملكوت الله

يعني أبي منهم ؟

نعم وهو استغلالي ؛ لأنه يجني الأرباح دون تعب ماله كله من فائض القيمة يعني من تعب العمال واستقلالهم، وهذا مصدر ثروة أبيك ألم يكن عنده مصنع للثريات، قبل أن ينتقل للتجارة؟ كان ياسر الخوخة نحيفاً طويلاً ذا بشرة بيضاء وعينين زرقاوين.

عييه كان تعلم التدخين وإدمان القهوة وقد اكتسب هذه العادة من يونس نفسه ورغم أن يونس أحب الخمرة لدرجة الهوى، إلا أن ياسر لم يشربها إلا نادراً، ولم يقلد في شريها يونس. لكنه بالمقابل اكتسب من ابن عمه يونس عادات حميدة، وهي عشق السياسة

وقراءة الاقتصاد، وأيقن أن المال يتكون من تعب العامل وجهد الأجير فيما بعد تحول إلى قراءة الكتب الأدبية والروايات ودواوين الشعر. واهتم كثيراً بالكتب الفكرية والفلسفية، وعندما نال البكالوريا جمع أعلى الدرجات، قال: له أبوه؛

ادرس الحقوق، فقد يكون لك مستقبل في المحاماة، أو في وزارة الخارجية

هل تريدني أن أدافع عن اللصوص والقتلة؟ أما بالنسبة للخارجية فمعروف سلفاً أنه لا حظ لي فيها، إنها مخصصة لعلية القوم، وأبناء المتنفذين واست منهم.

من قال: إنك لست من علية القوم؟ إنني أعرف أكثرهم.

وقد شاركني بعضهم بالأموال دون عناء ولا مال

لكن ياسر أصر وبتحريض من يونس على رأيه واتجاهه

ودخل الجامعة، واختص بالفلسفة وعلم الاجتماع، ولم يهمل نشاطه في التنظيم وتوزيع المنشورات، أو عقد الاجتماعات أو الدعاية للحزب بمختلف السبل، فجمع بين الدراسة والواجبات الحزبية بنشاط منقطع النظير، فصارت له درجة في التنظيم بمساندة وتزكية من يونس نفسه وشفعت له ثقافته ونجابته في تبول هذا المركز إلا أنه تعرض للملاحقة والمسائلة من السلطة

قبيل تخرجه تعرف على سارين الأرجواني هي في الصف الثاني بكلية الهندسة وإعمار المدن، وهي من عائلة دمشقية عريقة لكنها ليست موسرة جداً هي متوسطة الحال أو ما يطلق عليه الحزب البرجوازية الصغيرة. هذه الطبقة ذات النزوع الأنتهازي المتطلع

للطبقة الأعلى، بكافة السبل حسب أفكار الحزب معرفتهما ببعض حصلت مصادفة. لم يجد كرسياً في بوفيه الجامعة، إلا على طاولة، كأنت تجلس هي إليها وتشرب قهوتها.

قال:

-حل تسمحين لي بالجلوس فانا لم أجد كرسيا فارغاً إلا إلى طاولتك؟

-تفضل كلنا زملاء

وجرت بينهما أحاديث عرف أنها تدرس الهندسة فرع إعمار المدن

وعرفها بنفسه أيضاً، وقال: مازحاً

-(بروليتاري) ابن (برجوازي)، ادرس الفلسفة وعلم الاجتماع.

وليس في مستقبل

جبت من اسلوبه وسألته

-لماذا ليس لك مستقبل؟

-خلقت مجادلاً وناقداً لكل شيء، أهوى الهدم و أريد إعادة

البناء ومن كان مثلي مجادلاً في كل شيء، كسب عداوة الناس أعرف المجاملة والمسايسة، وكيف تمارس، ولكني لا أطبقها

لأني اعتبرها نوعا من الدجل الاجتماعي.

اعجبت به لأنه مختلف و صريح، جدي وطريف

ومن هنا بدأت صداقتهما، والإنسان يفتتن دائما بالفريد المتميز لم يكن ياسر ليهوى الغزل، على طريقة أبناء جيله، بل كان في هذا المنحى مجدداً أيضاً، هو فنان في مزج السياسة بالحيد ينتقل بينهما بخفة راقص على الجليد.

بدأ معها الحديث، بنشد المجتمع والاستغلال الاقتصادي

الممارس من البرجوازية على الفقراء، وعدم تكافؤ الفرص السائد ، كاسلوب دجن الناس عليه فألقوه كشيء طبيعي، وعدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب لتفشي المحسوبية، ولأن نظرية الولاء قبل الكفاءة كأنت سائدة اضطرب المجتمع وساد الهدر وقل الأنتاج وكان ينتقد العقلية الشرقية التي تعشق الأساطير، وتظنها من أسس الدين، وتخلط بين الأخلاق والعادات ولا تفرق بين الدين وخرافة الآباء أو جهلهم، لذلك فإن هذه العقلية تحتاج إلى إعادة هيكلة، وأن الهدم يجب أن يسبق البناء، أما الحب فلا يمكن أن يزدهر بين كل هذه التناقضات، إلا إذا كان المحبون يعتنقون الأفكار نفسها.

اقتنعت بمنطلقاته، وقد أوتي حظاً من الإقناع والمجادلة، يعود ذلك إلى ثقافته الواسعة، وإيمانه الراسخ بمعتقده ولكونها مهندسة فإنها تعرف أن المدن لا يمكن تشييدها، إلا بعد هدم ما تهالك منها أو اندثر.

وجدت نفسها تجاريه في أفكاره، وحصل الانسجام بينهما من هذه الزاوية. هو لم يتغزل بعينيها العسليتين الواسعتين الرائعتين

ولا بمعاني وجهها الساحر، وانسجامه مع تكوينها. ولا يجسدها المعشوق المنحوت بدقة، بل كان الجاذب بينهما هو الأرضية الفكرية تلك، و التي خلقها هو نفسه وجعلها مشتركة بينهما. ورغم أنه أوقف وحقق معه عدة مرات خلال وجوده في الجامعة لفترات قصيرة فقد زارته في مكان توقيفه أحياناً، إلا أن هذا لم

يجمله في نظرها خريج سجون أو شكل نقطة ضعف ضده، أو سبباً لأن تتركه بل بالعكس اعتبرته مناضلا ومجربا، فلق اترابه و أعجبت بالحرارة المتدفقة من خطابه، عندما يدافع بإيمان عن أفكاره وأعجبت أيضا بجرأته التي بلغت حد التهور. وقد تجاوز بأفكاره نظريات حزبه ومنطلقاته، وتطرف أكثر منه في ذلك، فاصبح ملكياً أكثر من الملك كما يقال:، فنقد العصر الجاهلي، والذي قال: إنه ما يزال يعيش فينا، وبين ظهرانينا فالسلاجقة والمماليك والسلاطين من عصور الانحطاط مازالوا يحركوننا بخيوط غير مرئية، وهم يرقدون في قبورهم، وقال: لها: على هذه الشعوب، حتى تنهض وتلحق بالشعوب المتقدمة أن تحرق المراحل، وأن تستيقظ ويعود لها الوعي

ولما سألته:

قال:

هل أنت ملحد ؟

ما الإتحادة الله موجود في داخل كل منا كل واحد ينظر إليه من داخله أنا أجد أن الله محبة، غيري قد يجده جلاداً. الدين طاقة روحية إيجابية إذا وظفت لدعم الأخلاق، والحراك الاجتماعي الثوري والتعاون بين الناس المشكلة أنه إذا وظف الدين ليكون

وسيلة للوصول إلى الكرسي، فإن كارثة لابد أن تقع خذي مثلاً اليابان، هي دولة وثنية ولكنها تقدس دينها .

وتحض عليه، بصلوات لدقائق قبل البدء بالعمل اليومي تقريبا في كافة المؤسسات هذا التصرف البسيط المستفرق للوقت القليل.

طاقة روحية الإجادة العمل والبراعة فيه، ولإطالة مدته بقية إجادة السلعة وتميزها، حتى قبل إن الياباني يعمل عشرين ساعة في اليوم بهذا المعنى يكون الدين قوة إيجابية تخدم المجموع أما إذا وظفت النصوص للوصول إلى كرسي الحكم، أو استعباد الآخرين، أو تقسيمهم إلى شيع وملل أو التفشي الكسل والتواكل، فإن ذلك كارثة على المجتمع، لأن الحاكم عندئذ يدعي أنه يمثل الله على الأرض، وفي هذه الحالة لا رادع السلطانه، فينقسم المجتمع وتتشطى الأمة.

قالت له:

لماذا تنقد الماضي باستمرار وتعييه، مع أنه يحمل الأشياء

الحسنة في كثير من المواضع؟

أنا لا أنقد الماضي كله لكونه ماض، إنني أفرق بين المث والثمين بين الايجابي والسلبي لقد درست الفكر اليساري ورأس المال فوجدت أن في تاريخنا جذوراً، لتلك الأفكار لا أنكر ذلك، منها:

(ما أمن إنسان وجاره جائع) لكنني أنقد الماضي، والذي ربما كان قبل الإسلام، واستمرت عصبيته بعده عميقة، رغم أن الدين الفى العصبيات ونادى بالمساواة ودعا للإنسانية، فحرب داحس والغيراء شقت الناس، وكرست العداء بين أبناء الحي، لمدة

أربعين عاماً من أجل ناقة الإسلام أراد تخليص المجتمع من عصبيته وانقساماته وعاداته السيئة، وسما به إلى أفق إنساني مفتوح فقال:

الافضل العربي على أعجمي إلا بالتقوى الناس سواسية كاسنان المشط) بعض المفكرين اليساريين وصف اليسارية المتطرفة بأنها (إسلام القرن العشرين) عندما غاب الرسول، نشات مراعات على الإمارة وادخلوا الدين في السياسة، وظهرت مسوغات ايديولوجية هدفها الحكم عطاؤها ديني باطنها نفسي قسمت المسلمين فتتاحروا، وجرت حوادث وحروب دراماتيكية، ما تزال آثارها ملحوظة إلى الآن، ومع أن الإسلام نهى عن ذلك في قوله تعالى " مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيهِمْ فَرِحُونَ " إلا أن ذلك حصل بدخول السياسة إلى الدين وجعله مطية للوصول إلى الحكم

أنت اليساري المتطرف تستشهد بنصوص من الدين؟

وما يمنع من ذلك؟ إن الحكمة ضالة المؤمن واقد حفظت الكثير من الآيات الأدافع عن عقيدتي السياسية وليس بدافع التدين

اعجبت سارين الأرجواني بأفكاره، وكأنت تظنه ملحداً، أو متطرفاً هداماً، أو حتى إرهابياً، ولكنها كلما احتكت به لامست الطيبة والبراءة في أفكاره حب الناس، وتصرفاته تتم عن تصوف

كان يسكن في شقة مؤلفة من ثلاث غرف قريبة من الجامعة، هي ملك أبيه، الذي ملك العديد من الشقق والفلل.

فكان في أغلب الأحيان، يتواجد في هذه الشقة القريبة من الجامعة، وأما بيتهم الرئيس الذي يسكنوه، فهو دارة فخمة في المالكي، فخصص له والده هذه الشقة للدراسة ولقاء الأصدقاء.

القربها من الجامعة، واستغلها هو لبعض نشاطاته الحزبية. لم يدع سارين يوماً إليها ليختلي بها، هو لم يفعل ذلك إطلاقاً، بل ملك قلبها بشخصيته الملتزمة وأفكاره التي تحمس لها .

قالت له :

شقتك قريبة من هنا؟

إنها على بعد أمتار من الجامعة، وهي شقة صغيرة من ثلاث غرف، خصصها لي والدي للدراسة والراحة، ولقاء الأصدقاء.

ولكني أنام في بيتنا بالمالكي.

حبذا لو درسنا سوية فيها، أو شرينا القهوة وتسامرنا فيها بدل المقاهي

لا اعتقد أن هذا مناسباً، ولكن إذا احتجت للتحضير فإنني أترك لك البيت ساعات، وعندما تخرجين أعود إليه، ليس من المناسب أن تلتقي فيه معاً، وأنا متأكد أنه لن يحدث شيء بيننا، ولكن الناس سيؤولون الأمور بشكل فيه شك سيئ، وهذا يسيء لسمعتك كما يسيء لسمعتي.

وأكبرت فيه هذا الإباء، إنه إنسان نظيف وصاحب عبداً

فاجبته واعتقت بعض أفكاره، دون أن تنتسب لحزبه، ولم يقدمها هو بضرورة أنتابها للحزب، فمرفت أن علاقتهما لا غلية مصلحية لها، ولكنها سألته يوماً:

إنك لا تنا تنتقد الماضي والحاضر، ولم أر يوما أنك تكرس الرضا عن الواقع؟

النقد هو الموج الخفيف الذي يداعب مياه البحيرة فلا يأسن ماؤها بالنقد ترتقي الأمم وارحم الله امرا أهدى إلي عيوبي).

وتوطدت العلاقة ما بين ياسر وسارين، وصارا يلتقيان كل يوم صباحاً في (بوفيه) الجامعة، وبعد الظهر في أحدى المقاهي، كان في كل لقاء يطرح أموراً واسعة للنقاش، قال:ت له مرة:

هل تعرف شيئاً عن الخيال المجنح، و(الرومأنتيكية) المحلقة في الحب؟

استغرب سؤالها، واعتقد أن لا محل له من المناقشة، وكأنت هي ترمي من سؤالها، أنها ترغب في التطرق إلى حب رومانسي بدأ يطرق قلبها.

الحب لا يحتاج لكلمات، ربما يحتاج لصمت

مرة قال:ت في نفسها : (اليس من الأفضل أن أقيم علاقة مع طبيب تنتهي بزواج؟ اليس ذلك أفضل من هذا المغامر الخطرة يبدو لي أحيانا أنه كبحر عميق).

كانت سارين لتمتع بشخصية مزدوجة، غير مفهومة، هي نفسها تستغرب ذاتها، تبدو مرة غامضة، وتارة صريحة مرة مثالية وأخرى في منتهى الأنانية.

واستفسر عن تساؤلها الغامض !

لم أفهم المعنى الذي تقصدين؟

قالت:

في كل لقاء بيننا، نبحث في العام دون الخاص، ونبحث في الموضوعية، ونهمل ذاتيتنا، في الحقيقة أنا أحبك منذ زمن وأنتظرت أن تفاتحني بحبك لي إن كان في قلبك حب، فنحن في مجتمع يعيب على الفتاة أن تبادر ربما كنت رجل عقل بارد، أو رجل فكر يفتقر للشاعرية، اعذرني لهذا الوصف

سر من جراتها وشجاعتها فقال:

ليس من الضروري أن يبادر الرجل، وأنا أنتظرت منك مثل هذه المبادرة التي سرتني أنا أفكر وأحمل نفسية الشعراء ويمكن من هذا المنحى أن أكون مزدوجاً، واعتقد أن كل إنسان يحمل في داخله الطين السفلي، وروح الملاك

إنني يا عزيزتي أحبك منذ زمن طويل، وأنا لا أحب الكلام والنقاش والمجادلة؛ إلا مع من أحب أحيانا يكون الصمت، أبلغ تعبير عن الحب، لأن الحب لا يمكن إخفاؤه، والمحب الذي يكرر كلمات الحب، لمن يحب لا يثق كثيراً بحبه، فيؤكده بالكلام

وأحيانا بالإشارات والأيدي، ومعرفة الحب قد تكون بالعيون والنظرات العميقة أحيانا، وهي أبلغ تعبيراً، وقد قرأت حبك لي قبل البوح به، والمنك أنت قد لمست حبي لك

كذلك، بعضهم يصفني بالرجل الصامت، وآخرون يخيفهم صمتي، قد تستغربين قولي هذا، فأنت لم تهديني إلا مكثرا في الكلام، أن هذه الحال معك فقط، ينطلق اللسان ليغرف من بحر، كان الكلام معك بغزارة ضروريا لتعريفة من أنا فتستمري أو تتركي، ولم أطلب منك يوماً ولن أطلب أن تدخلي في الحزب، بل أن تكون قاعدة بياناتنا وأفكارنا ومعتقداتنا معلومة من الطرفين، ومقبولة.

وصدقيني فإني أحب الرومأنتيكية)، والشعر حباً عميقاً، وكان بالإمكان أن أكون شاعراً، وقد قرفت يوماً، من أناس تعدوا على الشعر، فقرضوه بأبشع صوره فقرفت من ذلك، ولم أقرضه لهذا

السببيه واستطعت أن أفرق بين نوعين من الشعراء

الأول: متكسب متعلق غايته إرضاء أولي النفوذ، أو وجهاء القوم

وثانيهما: أعزه وأقدره وهو الشاعر الذي ينطق بالحقيقة. ملتمساً افقاً بكراً طازجاً، لخدمة بني الإنسان، ويكون في هذه الحالة، لسان المقهورين وصوت المحرومين، لا يداهن ولا يمالي قول الشعر عن تجربة شعورية صادقة، فيسحرك بيانه، ويحلق بك على الفيوم وفوق المحيط إنه نتاج الروح، وعلى الإنسان أن يغذي روحه باستمرار.

إنني أحبك يا سارين، كما أحب الشجر والعصافير، وحقول الأقحوان، وروابي البنفسج أنت يا سارين أصبحت بالنسبة لي روحاً إضافية، تمدني بالقدرة والإبداع والنشاط، وأفكر أن أذهب مع أهلي لطلب يدك من أبيك في اقرب وقت، ونعلن خطوبتنا على الملأ

فوجئت بغزارة عواطفه المخبأة، وعرضه السخي المفاجئ أيضاً، لكنها قالت:

أنا لم أتخرج بعد، وأرى الأنتظار لما بعد التخرج

إذا كان هذا ما ترغبين، فليكن

واتفقا على قضاء يوم الجمعة في مصيف نبع بردى استعار إحدى سيارات أبيه، الذي كان قد أصر أن تكون له سيارته الخاصة ليتنقل بها لكن ياسر رفض ذلك، وقال:

ابيه لا أريد أن أظهر أمام رفاقي بمظهر البرجوازي المفاخر بمال

كان المكان ساحراً، والنبع بارد وصافي، يخرج من بين صخور صماء، ليشكل بحيرة صغيرة قامت حولها بعض المقاهي والمطاعم جلسا إلى طاولة على حافة الماء. كأنت الأشجار تظللهما والعصافير تتقافز من غصن إلى غصن فوقهما... قال:ت

- إنني متفائلة بالمستقبل الواعد، فالحب يجعل كل مفاصل

الحياة جميلة

. هذا صحيح، ولكن سعادة الإنسان لا تكتمل إلا حين يرى

جميع الناس سعداء، أو الذين حوله على الأقل

هذه غاية لن تتحقق، وإلا يفقد الكون جدايته فلولا السلام لما تعمنا بالنور، ولولا العلاقة الجدلية بين الأرض والشمس لما دام التوازن ولما كأنت حياة على المرء أن يسمى وراء مصالحة الذاتية، ليؤمن السعادة له ولأبنائه.

أنا أكره حديث المصالح الخاصة، مصلحة طبقة مسحوقة الأجبر السعي لرفع الحيف عنها، علينا إيجاد الأرضية المشتركة بين المصلحة الخاصة، والمصالح الوطنية والطبقية العامة، أحياناً لا تكون السعادة بالمال، فكم من الرياء تجدينهم نساء ا وكم من

فقراء تغمرهم السعادة

تعجبني فيك صراحتك، لهذا تخلق حبي لك يا ياسر، من قناعة لولدت بمرور الوقت، فأصبحت تلك العاطفة نهراً له ضفاف، ولم تكن عاطفة هو جاء بنت لحظتها، تهدر كسيل بلا ضفاف، لا يلبث أن يتلاشى فتستوعبه الأرض، وشتان بين النهروالسيل

حب له ضفاف، يعني محدود في الزمان أو المكان.

لم أقصد ذلك، وإنما أردت أن أقول: إن على العقل والعاطفة، أن يلتقيا عند تخلق الحب

- أنا أعتقد أيضاً، أن هذا الحب الذي جمعنا ، هو نتيجة عقلية مشتركة، وطوية نظيفة بريئة كنفسية طفل لم تدنسه الشرور وجاء النادل فطلبا الطعام وتابعا النقاش، قال:

كنا نبحث عن الشعر، وقد وجدت أنه قد أقعدنا في بعض الأحيان عن العمل ودراسة المعادلات وفتح مراكز الأبحاث كان الكلام سيد الحياة، كلام مبالغ فيها في الفخر بالآباء والأجداد، وبتنظيم ترجمي لذات الفرد المتفاخر دوما اللاموضوعي في أكثر الأحيان، وقد نما كل ذلك على حساب العمل فكم تعلق جيلنا، والأجيال التي قبلنا في المقاهي والندوات لسماع شعر هزيل يمجد الذات ويفتخر بالأجداد، أما حصيلتنا من ذلك فكأنت صفراً، أو فوق الصفر بقليل كان الشاعر ينفع في قيل من البلاستيك فيمتلئ هواء، ويظنه بعضهم فيلاً حقيقياً.

ما أشبه شعرنا . بعضه على الأقل بفقاعات الصابون، والبخور الملون عندما يطلق ليوهم الناس بالفرح الزائف، ليقتنموا فيه وكم خدرنا البخور وسحرنا الوهم، كما تتخيل الهزائم أنتصارات، وتفرق في العنتريات، وتقدس الماضي، وكأنه قدس الأقداس فتناوله

بقضه وقضيضه دون فرز كنا نفتخر بمناسبة وبدون مناسبة، بقول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم

ملانا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نعلوه سفين

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخوله الجبابر ساجدينا

ولم يكن لهذا القول أي رصيد واقعي من القوة، ماذا أقول منها إنه فخر كاذب مبالغ فيه إنه (دونكيشوتية مضحكة.

لقد قيل في وقت كأنت فيه إمبراطوريتان رومانية وفارسية على

حدود الجزيرة العربية، تتصارعان كل يريد ابتلاعها أو السيطرة

عليها العربي يومها لا يملك من أمره شيئا سوى الفخر الكاذب. على تغيرت الأمور قليلاً في ذي قار، ومن بعد، تحول الاقتال الداخلي بين القبائل، إلى تحرير أصقاع، كأنت تحت رحمة الروم والفرس، فترة مضيئة لكنها كومضة شهاب، ثم عادت القبلية التظهر من جديد. وقد شهد أبي خطيباً، بعيد أيام من هزيمة حزيران، يترنم بهذين البيتين على منبر كاذب، وكأنت الطائرات العربية، كلها قد تحطمت والدبابات قد احترقت، والأرض قد احات، الدول عربية ثلاث كان أبي يحدثنا بهذا ساخراً !

تقولين لي أنك تقد الماضي أنا لا أنقد الماضي بكامله، أفرز فقط الصدق عن الوهم، ولا أريد أن أليس الباطل ثوب الحق، إن تاريخنا تاريخ ملوك لا تاريخ شعوب، وقد كتبه الحاكم من منظوره واصالحه، وكرس ذلك الشعر مع الأسف. فأركسنا إلى جاهليتنا نفتخر بما ليس فينا الشعر من هذه الزاوية بالنسبة لي مرفوض، أما الشعر المتمرد الذي يدعو إلى الحياة الحرة، والحراك الاجتماعي العادل والانطلاق نحو التقدم والحداثة، فهو روح الأمة.

قال: الخليفة العباسي لوكان المغول على أبواب بغداد يستعدون الاستباحتها):

اعد يا غلام شاعرنا ألف دينار، لأنه صدق في وصفنا فأجاد وقبض الشاعر الكلاب المتزلف، أعطيته وخرج يضحك في عبه على الخليفة المغتر بمديحه والمنتشي بذكره القزم في حقيقته.

لأن المغول قتلوه بعد أيام وهو بكيس مربوط

كان الشعب يومها، يبحث عن لقمته بين النفايات، ويقف عاجزاً امام استباحة المغول بوحشية لبلاده، لم يهين لهم ذلك الخليفة المزعوم أسباب القوة والمنعة، فلقد كأنت له جواريه و غلمانه عندما يكثر المداهنون والمنافقون حول الحاكم، ينسحب الشجعان والصادقون فخلا البلاط يومثار من الناصحين والعلماء وأصحاب الفكر، وفرخ الأنتهازيون فتكاثروا.

إننا نعرف عن أبي نواس وخمره وغلمانه أكثر مما تعرف عن مخترع الساعة، التي أهداها هارون الرشيد لشارلمان، التي أدهشته فظن أن بها عفريتاً. من المخترع؟ إنه من عامة الشعب، قسط حقه فلم يخلد اسمه

وهل غانيات قصور الخليفة وجواريه ومحظياته، كن من الشهرة بحيث غطت شهرتهن على أسماء صانعي السيوف والدروع والمنجنيقات الذين يعود إليهم الفضل في الفتوحات؟

ولا نعلم كثيراً عن مخترعي الإسطرلاب، أو عن بصريات ابن الهيثم، ومركز أبحاثه، وكيف كأنت تتوفر له سبل العيش وكان الأولى أن يمده الولاة بالدعم المادي والمعنوي، حتى لا يقتطع من لقمة أطفاله، فيصرف على أبحاثه.

ولا نعرف الكثير أيضاً عن الزهراوي، أو الفارابي، ذلك الفيلسوف الموسيقي المتنوع المواهب والذي قيل عنه: إنه أتى ليلة قوماً، فعزف لهم فأبكاهم، ثم عزف، فأضحكهم وعزف للمرة الثالثة، فخدرهم وناموا فتركهم نياماً وغادر.

السؤال الآن، الذي يتبادر ولا شك لذهنك يا سارين

لماذا ازدهرت القصيدة المادحة الخانعة الكاذبة، وبرز شعراؤها وتنعموا بالألقاب والأموال بينما همش العلماء، وطمس ذكرهم ونسيهم التاريخ، والذين عارضوا منهم قتلوا أو صلبوا.

قالت سارين:

وما برأيك أنت السبب؟

السبب بسيط، لأن القصيدة عزفت على عقد نقص الحكام وعجزهم، وصورت لهم العظمة الكاذبة . وهم مجردون منها - أنها في داخلهم، وسريلتهم بالكبرياء، وهم فاقدون لها.

جاء نادل المطعم بالطعام، فصفت الصحون.....

قال النادل :

هل تريدون شراباً بيرة أم ويسكي أم نبيذاً أحمر.

قال ياسر:

لا هذا ولا ذاك، فأنا لا أشرب المسكرا

وسأل سارين؟

هل تشربين أنت هذه المشروبات؟

ضحكت وقالت:

طبعاً لا.

وانصرف النادل.

فقالت له :

- أنت لست متديناً ، فلماذا لا تشرب الخمرة مع أن الكثير من امثال حزيك يشربون الذلك علاقة بقيادة السيارة؟

لا علاقة لكل ذلك بهذا الأمر. إنه شراب يفقد الوعي ونحن بحاجة إلى مزيد من الوعي، إذا اضطررت بالمناسبات الاجتماعية قد أجامل برشفة أو رشفتين.

قالت:

لنتوقف قليلاً عن الكلام ونبدأ بالطعام. وهذه فرصة للسانك كي يستريح.

وأثناء تناولهما الطعام، قالت:

أظن أن هذا العام، هو العام الأخير لك في الجامعة، وعليك أن تستعد للامتحان، وتحصل على مجموع جيد، يؤهلك للماجستير.

هذا صحيح، وسأنقطع خلال شهور سنة للتحضير، لن التقي بالرفاق والأصدقاء. إنها الشهور الأصعب.

وهل ستقل لقاءاتي بك، أم ستنقطع أيضاً؟

لن يتغير شيء في لقاءاتنا، فهي الدافع لي المزيد من الجهد والأمل.

فرغا من تناول الطعام، وغسلا أيديهما في البوفيه القريب وفي هذا الوقت كان النادل قد رفع الصحون، ونظف الطاولة فجلسا إليها مجدداً، وأشار ياسر للنادل بإحضار القهوة.

كانت سارين، تنظر إلى البحيرة الصافية، التي أصبحت ملعباً لطيور البط، وكانت هناك بطتان تتلاعبان، فيلحق الذكر بالأنثى مداعباً، واسترعى أنتباهه انشغالها بالمنظر، وقد اكتسى وجهها سروراً وابتساماً، وشيئاً من خجل خفيف.

فقال:

ما يفتا الذكر في المخلوقات كلها ، يداعب الأنثى وتقر منه لكنها راغبة.

ضحكت، فتألقت العيون بوهج النجوم، واعترى كيانها سرور اخاذ

فقالت:

الحب سر الحياة كنا قبل الطعام نتحدث عن الشعر، ولا أعرف موقفك من الرواية، هل عزفت عن تأليفها لكتاب المتطفلين عليها أيضاً؟

نعم الأمر كذلك بعضهم يقدم لك بقال:ب كريستالي مضموناً غثوياً تافهاً، ويظن أنه قدم سبقاً أو فتحاً، أكره المباني البراقة، التي تحوي الأفكار التافهة. إن للرواية دوراً عظيماً في تجديد الحياة، ودعم الأخلاق، وتبرعم الأمل وتربية الأجيال؛ لذلك ليست هي شكلاً أنيقاً فقط، إنها المضمون الجيد الهادف، لا اقصد أن يكون لها مضموناً أيديولوجياً، أو حزبياً معيناً، بل أن تبحث بعمق في منحى من مناحي الحياة الزاخرة بعضهم يفهم الرواية، أنها الحب الذي يعاني من عادات الأهل، فيقوم بالتغلب عليها ثم ينتهي المطاف بالزواج، فيشعر المرء، وهو يقرأ رواية من هذا النوع، أنه يشاهد فلماً هنديا ، أو فيلما عربياً، بات مكروراً ومملاً وتافهاً : الفتاة ابنة غني برجوازي والشاب من طبقة فقيرة أو العكس، يعارض الأهل وتحدث ممانعات، ثم يتزوجان في الأخير كما يتزوج كل الناس.

ماذا قدمت الرواية هذه للحياة، قد يقول بعضهم، إنها تصوير فوتوغرافي الواقع حدث، أو قد يحدث، لكن الرواية ليست تصويراً فوتوغرافياً، إنها لوحة فنية وشتان بين لوحة فنية، وصورة فوتوغرافية. إذا لم يعط الروائي من روحه إلى روايته فليس روائياً.

وكذلك الرسام للوحته. بعضهم يكتب عن الحب، ولكنه يفرق في الفسق، ويعتاش على كبت جيل، لم يفتح نوافذه الأربع للرياحوالشمس الحب ليس جنساً رخيصاً، أو ابتذالاً ممجوجاً، إنه الق وتوهج يخطف الأبصار. بعض الروائيين يكتب في الحب قصصاً عادية، لكنه يلعب على الألفاظ والبديع والصنعة والتورية، يتفنن في التراكيب إذا جردت روايته من صنعتها، والتلاعب في الفاظها، تجدينها حكاية تافهة خالية من أي مضمون، في أحسن الأحوال تشبه محتوى ضبط قام بإنشائه موظف. لا تقدم شيئاً للحياة جديداً مبدعاً، أو مغلفاً بعبقرية أو دعوة مبطنة لتغيير المألوف نحو الأفضل. العبرة للأفكار والمعاني لا للتراكيب والمباني.

لكن إذا توافر للرواية شكل أنيق بسيط، يشبه السهل الممتنع؛ أي أن تشعري بجمال النص، رغم بساطته فلا تعرفين السبب، على أن يتوافر لها أيضا فكر خلاق، وأمل باعث للتجدد تكون الرواية قد استوفت الشروط كلها.

لا أنكر أن السحر يكمن في الأسلوب أحيانا. وقد تصدمك بساطته، مثلما تسحرك الأشجار المزهرة في الربيع، ورفوف العصافير بعد شهر التكاثر على البيادر، وحقول الأقحوان والسوسن، التي تحف ضفاف الينابيع، أو عندما يسطع أنفك شذا البيلسان في الغابات الزمردية، إنه بسيط لكنه اخاذ، أحياناً لبساطته يصعب وصفه، لكن يمكن لمس وهجه والقه وبريق نجومه. وعليك أن تمتلكي سحر البيان، ودقة التجربة والفكر

الذي يشبه البرق أو الصعق الخلاق الذي يعيد الحياة نابضة، وإلا فإن الروائي يكون كمن يحنط الأزهار ويجففها، إن الحروف المشغولة بالبديع والصنعة، واللعب على الألفاظ، كالمجوهرات الزائفة لا تلبث أن تلقى بدون كبير أسف إلى الزوايا المهملة لأنها فقدت بريقها وأخجلت حاملها، بينما يحتفظ بالماس في أروع مكان على صدور الجميلات

إن الكلمة الحارة، بنت اللحظة الحارة، لا يمكن وضعها في علب السردين، وإلا تصبح سمكاً منفسخاً، ولا أروع من سمك طازج يتقلب قافزاً من النهر إلى المرج على يد

صياد حاذق عندها يمكن أن نقول أنك حزت سمكاً طازجاً رائعاً حياً، إن الرواية إذا لم تحمل حرارة الكلمة، وتمرد الفكرة والإبداع الخارق، والنبض الحقيقي الحار، وطزاجة أعشاب السهوب البرية الشاسعة، فلا يمكن وصفها بالرواية. وإذا لم تكن الرواية تحمل الحب الحار، والفكر الحاد، والإبداع الخارق للمألوف، فهي كمن ينام مع جثة.

شكل آخر من الرواية المبهمة اسميها الرواية الأحجية إنها الغموض والتعقيد، يقول كاتبها :

أنا أهوى الأسلوب الرمزي.

يقولون له:

لكننا لا نفقه ما تقول.

يقول لهم:

وأنتم لماذا لا تفهمون ما يقال:؟

يسكنون

كان من الواجب أن يقولوا له الرواية تجديد للحياة، وتغيير البالي من القيم كيف لها أن تقوم بذلك، إذا كأنت طلاسم مغلقة، وأحاجي لا معنى لها

قالت:

إن ألفاظك وتشبيهاتك حادة صريحة كنفسيتك، واعتقد أن الكاتب الذي يكتب، لابد أن يضع في روايته شيئاً منه

هذا بالضبط ما عنيته، ولذلك لم أكتب الرواية، فالناس لم يتعودوا بعد على الصراحة الجارحة، يريدون من يجاملهم، أو يسليهم وأنا لا أؤمن بهذا الأسلوب، إذا لم يكن الكاتب جارحاً كالنصل، فلن يستأصل المرض. وإذا لم يكن كنبي فلا خير فيه، ولن يخلده الزمن: إذا لم يكن له وهو يكتب، عيني نسر ساعة الانقضاض فلن يستفز شجاعة الآخرين ويدفعهم للتغيير صدقت فيما قلت والآن علينا العودة إلى دمشق، فقد تأخر

الوقت

. كما تشائين علمي بنا....

غادرا المطعم واتجها إلى دمشق، وصلاها قبيل الغروب، ودعها

على أمل اللقاء في اليوم التالي.

(٢)

قرر ياسر الاعتكاف والانزواء في بيت أبيه بالحلبوني، من أجل التحضير للامتحان النهائي بقية التخرج بمعدلات عالية.

تؤهله للمتابعة في الماجستير، فانكب على الدراسة بشغف وهمة وغدا لا يخرج من بيته في الحلبوني القريب من الجامعة، إلا للضرورة القصوى، وأعلم رفاقه واصدقاءه بما نوى، لان غيابه سيدوم حتى أنتهاء الامتحان، وهجر الفيلا في المالكي، بعد أن أعلم أهله بضرورة انقطاعه الكلي للتحضير، وأنه سينام في المالكي، ليلة الخميس والجمعة فقط، وباقي الأيام والليالي في الحلبوني. كأنت أمه فاطمة الحلو منزعجة لقراره هذا، لأنها تحبه كثيراً، بل تفضله على أخيه زهير الصدقه وثباته على قول الحق عكس أخيه الذي عرف بجشعه للمال، وافتقاره للأخلاق

أما بالنسبة السارين التي علمت بقراره، فقد اقترحت عليه لقاء قصيراً كل يومين مرة، لشرب فنجان قهوة في أحد المقاهي القريبة من الجامعة فوافق ونفذا ذلك. ثم صارا يلتقيان في الأسبوع مرتين

في كافتيريا العصفور الأصفر)، أخيراً انكمش اللقاء إلى مرة واحدة، وقد انزعجت سارين من ذلك، رغم سماعها مسوغات مقنعة، ثم غاب عنها عشرة أيام، فاتصلت به بالهاتف فلم يجب وقد تولاها عندئذ شعور ممض بالغضب والغيرة، فما كان منها إلا أن ذهبت لبيته في الحلبوني، وقرعت جرس الباب

استغرب ياسر عندما سمع جرس الباب يقرع، فقد قرر الا يزور، ولا يزار، وكل رفاقه علموا بذلك، وقال: في نفسه:

من عساه أن يكون الطارق، ورفاقي قد تركوني لما بعد الامتحان، العلهم (إياهم) عناصر الأمن ؟ (ربما فطنوا بي، فأرادوا سحبي إلى السجن، لتدمير مستقبلي.)

ولما فتح الباب، فوجئ بها لثوان قليلة أصابه الوجوم من المفاجأة، كأنت تقف كشجرة دراق مزهرة، وقد فاح منها العبير، لكن الألق والشذا ، طفى بطزاجة مبهرة على الموقف برمته.

قال مرحباً ومبتسماً :

أهلاً بحبيبتي التي أمضني الشوق إليها، ومنعني التحضير للامتحان من رؤيتها.

عشرة أيام لم تتصل ولم تظهر، فأي شوق تدعي ؟ !

- ابتسم وقال معتذراً :

معك كل الحق، لقد نسيت نفسي ولكنك في البال، وقادها إلى غرفة الضيوف، واسعة وبسيطة في الوقت ذاته لكنها أنيقة، و مفروشة بالأرائك المريحة الملونة بالأصفر الفاتح والأبيض، على خلفية جدران بلون الكيوي الأخضر، وقد زينت الجدران باللوحات الزيتية البديعة.

وبادرته وكانها تسوع مجيئها المفاجئ

اتصلت بهاتفك فلم ترد فانشغل بالي وقلت لنفسي : لابد من اقتحام عقر دارك.

الهاتف مقطوع، ولم يتسن لي الوقت لتسديد الفاتورة المستحقة.

اعتذر منك لأنني أتيت بدون موعد.

هذا بيتك وتشرفينني في أي وقت ويا حبذا لو يكون اللقاء فيه مستقبلا توفيرا للوقت، وأما أقوال الناس فلا تضر، لأننا سنقترن قريبا.

وقدم لها القهوة، وتناولا أحاديث عن تحضيره للفحص، الذي بات قريباً، ولما سألها عن تحضيراتها لفحوصها أيضاً، قالت:

يعتبر هذا الفحص ما قبل السنة الأخيرة، ونحضر فيه عادة مشاريع مطبوعة، وأنا الآن منهمكة في رسم وطباعة هذه المشاريع.

وقبل أن تغادر دارت على غرف البيت الثلاث فاعجبت بتوزيعها، وديكوراتها وفرشها الأنيق.

فقالت له :

كنت أظن بيتك أصغر، وأقل فخامة ويليق بطالب فقط.

وماذا وجدته الآن؟

إنه شقة منمنمة أنيقة ذات فرش جميل ويصلح العروسين

ماذا أعجبك أكثر شيء فيه؟

المطبخ الرائع بديكوره الفني بمعداته، وكذلك أعجبتني غرفة الجلوس ذات الأرائك المريحة، والألوان الربيعية المفرحة تزينها نباتات الظل، الموزعة بذوق راق على الزوايا ، أما غرفة النوم فهي رومانسية ومدهشة.

قال:

أحب النبات، رمز الحياة، وحاضنة الإنسان الأولى، يأخذ منا الطاقات السلبية، ويمنحنا الطاقات الإيجابية، الاهتمام اليومي به متعة لا تعادلها متعة، لكن أهم شيء في البيت، أن يكون قبلياً جنوبيا تغمره الشمس، وبيتنا هذا تتوفر فيه هذه الصفات، إضافة إلى الشرفة المطلة على الحديقة الخلفية.

وافقته على الفكرة، ثم قالت:

- هل انقطعت عن اجتماعاتك مع رفاقك، وهل مازلت تسمع الأخبار؟

- كان انقطاعي؛ ومازال كلياً عن أصدقائي ورفاقي، وحتى أهلي لا أراهم سوى ليلة الخميس.

في كل أسبوع لقاء واحد، هذا قليل، لكنني أعذرك.

وأقدر قوة إرادتك وعزيمتك

اتفقا على اللقاء مرة في الأسبوع في بيته، ووعدته بتزويده بالأخبار الجديدة الطارئة، وحثته على إعادة الحرارة لهاتفه، ثم ودعته وانصرفت

كأنت الأمور في الخارج، تتغير بسرعة، لا كما قال:ت له سارين بان لا شيء جديد التطور بطيء، والأخبار عادية، ولاجديد تحت الشمس.

في الحقيقة كأنت أمور غربية وصادمة، تحدث بحزيه، لقد انقسم الحزب على نفسه إلى جناحين بل إلى حزبين:

الأول يحمل اسم الحزب القديم نفسه الحزب اليساري الراديكالي)، وزعيمه عبد البر عنيزان

والحزب الثاني صار يحمل اسم (حزب العمال اليساري الاجتماعي)، وزعيمة يونس الخوخة.

كان ابن عمه يونس الخوخة، هو زعيم الانشقاق وبطله. وقد اقنع بعض الحزبيين القياديين من الصف الثاني والثالث، أن ينشقوا عن الحزب القديم، ليظهروا بحزب جديد، يحمل اسماً مختلفاً، ومبادئ إضافية جديدة مطعمة بالليبرالية، كأنت فكرة يونس هي الانضمام إلى حزب الدولة والمجتمع الحاكم، لتشكيل

وبعضها ولد حديثاً نتيجة انشقاقات مماثلة. جبهة وطنية جامعة الأحزاب صغيرة جداً. تعداد بعضها بالعشرات

ورأى المنشقون أن هذه العملية، هي تطوير ديناميكي للحزب الذي أصبح كالمياه الراكدة، والتي ستتحول مع الزمن إلى مستنقع فبانضمامهم إلى الحزب الحاكم سنتتحقق مكاسب أهمها انه سيكون لكل حزب مهما كان عنده حصة (كونا) كل وزارة تتشكل

أقلها وزيران أو ثلاثة لكل حزب، كما أن الأعضاء البأرزين من كل حزب، سيحظون بالمنافع وسيستلمون بعض الإدارات في مفاصل الدولة، وبالنسبة ليونس الخوخة شخصياً، سيصبح زعيم حزب، تخصص له سيارة مارسيدس، من أحدث موديل، وشقة فخمة في العاصمة يتملكها، إضافة إلى ميزات لأبنائه.

وقال: مرة يونس الخوخة لأحد زواره:

ما أغبى أعضاء الحزب القديم، وخاصة عبد البر عنيزان إنهم لم يفهموا طبيعة المرحلة التي نعيش، وقد تخلفوا عن مسيرة العصر. يدعون أنهم يساريون حقيقيون. مع أنهم مصأبون بمرض الطفولة اليساري وينتظرهم سجن يقيمون فيه عقوداً، وقد صارت اللوائح عند الأمن.

كان ياسر مشغولاً بدراسته، ولا يعلم شيئا عن حقيقة ما يحدث، ولم يشأ يونس الخوخة، أن يخبره بما يجري، لأنه كان

متيقناً من انضمامه إلى جناحه مستقبلاً، وقد أعد له منصباً هاماً في الحزب، لكنه كان مخطئا في ظنه، فرغم صداقتهما العميقة ونضالهما المشترك، ثبت أنه لم يفهم ياسر، ولم يسبر عمق إيمانه ولم يفهم . كما يجب - نفسيته واتجاهه، وغايته من العمل السياسي.

ومرت الشهور، ونجح ياسر الخوخة بتفوق، ونال أعلى المعدلات فأمن الماجستير.

وفاتح ياسر سارين بأنه ينوي خطبتها، بعد تخرجه مباشرة فلم تمانع، بل قالت:

أعجبتني الشقة هذه، وأقترح أن تكون بيتنا الزوجي.

وصارح أباه مرة بحبه السارين، وأنه ينوي خطبتها والزواج منها.

وسأل أبوه أصدقاءه ومعارفه عن أسرة سارين، فأفادوه بأنها من أسرة محترمة لا غبار عليها، لكنها متوسطة الحال، فوافقه على الخطبة مرغماً، لأنه عرف أن ياسراً عنيد، وينفذ قراراته مهما كلف الأمر، إلا أنه في قرارة نفسه، كان يفضل لو اختار ياسر ابنة أحد المسؤولين الصاعدين زوجة، لكان دعم مستقبله ومستقبل الأسرة كلها، فالسلطة والمال، تتركز في هذه الأيدي الجديدة الصاعدة.

وعندما ظهرت النتيجة، وتخرج من الجامعة، خرج من قوقعته

إلى الحياة، وسمع بخبر انقسام الحزب لأول مرة من رفيقه مزير الخشن، ففوجئ بالخبر ولم يصدق، ولما استرد روعه، قال:

كارثة دمرت الحزب، لقد قضى الحزب على نفسه بنفسه

من أجل المناصب الزائلة، فقال: له مزيد

ولكن الحزب كحزب باق، وعلينا أن نبحث عن الأصح.

ونميز بين التحريفي والأصيل، فنلتزم بالأصيل وتحارب التحريفيين

قال ياسر:

اعتقد أن كليهما قد جانبا الصواب، ولولا وجود خطا يسوع الانقسام، لما حدث الذي حدث، وكان الأولى رأب الصدع.

تعني أننا سنخرج نهائياً من التنظيم؟

ليس قبل دراسة الأمور بعمق وموضوعية.

أرى أن تنضم إلى أحدهما، وتناضل في صفوف من تعتقد أنه

الأصح.

تأمل ياسر قليلاً ثم قال:

دعني أرى أولاً يونس الخوخة، بعد ذلك أقرر.

وذهب لعند ابن عمه يونس، فقابله الحراس على باب البناء الجديد للحزب، كان فخماً ومحصناً، ويلفه ديكور له هيبة، كما لو أنه قلعة تحمي من بداخلها ، وقد أهدته له الدولة بعد انضوائه في الجبهة، التي تقودها السلطة.

قال الحارس:

قف من أنت وماذا تريد؟

أنا من الحزب وابن عم يونس الخوخة.

لم يكترث المولج بالحراسة كثيراً، بما سمع بل قال:

أنتظر هنا لننظر في أمرك.

واتصلوا من غرفة الاستعلامات التي كان بها بعض العناصر المسلحة، ببنادق الكلاشينكوف وسألوا زعيم الحزب فقال:

دعوه في غرفة الأنتظار، نصف ساعة ثم أدخلوه علي.

لم يكن يونس مشغولاً، بل أراد أن يحجم زائره، ويسبغ الأبهة على مركزه الجديد، وقد عانى ذلك من زياراته لمراكز الأجهزة الأمنية. حيث كانوا يدعونه في غرفة الأنتظار، مشدود الأعصاب لفترة، ثم يدخلوه، إنها طريقة مخابراتية بامتياز، فمن علمك هذا يا يونس غيرهم؟

ولما أدخلوه إلى مكتب رئيس الحزب، صدم ياسر بما رأى من أبهة مفرطة، وفخامة شامخة لطاولة المكتب وللأثاث، وتذكر كيف كان يونس يتنقل في الأزقة على دراجته الهوائية، يوزع المنشورات ويتناول السندويتش مع العمال المكتب فخم ضخم وأهم من مكاتب الوزراء، وعندما رأه يونس وهو يدخل المكتب وقف وقال:

أهلاً بياسر ، لقد تركتك لامتحاناتك، ولم أشأ أن

ازعجك بأخبار الحزب، فمبارك نجاحك الباهر.

قال: ياسر متسرعاً، دون أن يرد على كلامه.

سمعت أن الحزب انقسم، هل هذا صحيح؟

ضحك يونس من سذاجته وتسرعه، وكان الأولى أن لا يسال، كيلا يظهر غبياً، فالمظاهر التي رآها عندها الجواب، وقال:

الحزب لم ينقسم على نفسه. لقد طهر نفسه بنفسه

وتخلص من رفاق أصيبوا بمرض الطفولة اليساري، نحن الآن يا ياسر، بمواقع السلطة، وسيفوز رفاقنا بالوظائف والوزارات وسيصبح من حزينا المديرون.

لقاء ماذا ؟

لقاء الانضمام إلى جبهة الحزب الحاكم !

هل هي مقايضة؟

لا ليست مقايضة، إنها تعاون وتكتيك، لتنفيذ أهداف حزينا. فالسلطة الحاكمة، تسير في طريق تطور لا رأسمالي فاشتراكي، وهذه خطوة تقدمية، وسنسعى إلى أن تتحول الدولة في الخطوة القادمة، إلى الطريق الاشتراكي، فنقترب من أهداف حزينا، وعندما يسيطر رفاقنا على المناصب والوظائف، تطور أنفسنا ونخدم جماهير حزينا.

والرفاق الآخرون، الذين قلت أنهم أصيبوا بمرض الطفولة

اليساري، ما مصيرهم؟

مصيرهم السجن، أو الانزواء في بيوتهم، وعلى نفسها جنت براقش

لماذا يكون هذا ؟

لأنهم لم يتطوروا مع الزمن والأحداث كما تطورنا

فالحياة نشوء وارتقاء كما تعلم، وهم لم يرتقوا كما ارتقينا، مع انهم نشؤوا كما نشأنا، أكيد أنك أنت يا ياسر، في صفنا ، وسينتظرك منصب هام في حزينا الجديد، ووزارة محرزة بعد

سنوات فماذا تقول؟

دعني أدرس الأمور بعمق مع نفسي.

خذ قسطك من الوقت، وأنا متأكد أنك ستنضم إلينا.

فتح الباب ودخل مدير مكتبه ليقول:

معلم ، (لم يقل يا رفيق (حان الآن وقت الاجتماع في مبنى قيادة حزب الدولة الحاكم، هناك تعليمات جديدة ستلقى لكم

إذن، جهزوا المارسيدس، فأنا نازل في الحال، اعتذر من ياسر وغادر المكتب. وهم ياسر بالمغادرة، فقال: له:

اشرب الشاي أولاً، ثم غادر.

ولكن ياسر لم يشرب الشاي، بل غادر المكتب حزيناً محبطاً.

وفي اليوم التالي، التقى برفيقه مزيد الخشن، فحدثه بما جرى

معه فقال: مزيد

ما الموقف السليم الآن يا رفيق ياسر ؟

ساظل حاملاً الأفكار التي آمنت بها. لقد قررت أن أوقف نشاطي في كلا الحزبين، ولكنني

قال مزيد:

وأنا سأفعل مثلك، ولكن عملنا هذا هروب، وكان الأصح الانضمام لجناح عبد البرعنيزان

لنترك الأمر للزمن، ويبدو أننا لم نتوصل بعد القرار.

وفي المساء اجتمعت العائلة كلها، في الفيلا بالمالكي، فقال:

الأب:

لقد أعلنت الوزارة عن مسابقة لتعيين مدرسين، فلتقدم أوراقك يا ياسر لهذه المسابقة، إن كنت مصراً على عدم الاشتغال بالتجارة.

بالنسبة للعمل التجاري انا ضده، لأنه مخالف لكل معتقداتي، ولذلك لن أعمل بهذا المجال، أما بالنسبة للتدريس

فاحبه، ولكنني لا أظن أنني سأنجح بالمسابقة.

لماذا ؟

لأنني من أصحاب السوابق السياسية. ونزيل سجون

قدم أوراقك وستنجح.

وقدم أوراقه المطلوبة لوزارة التربية، وهو متأكد من عدم قبوله. وحضر المقابلات، وجاوب على الأسئلة الخطية مكرهاً مضطراً، وبملل ويأس من يقدم على عمل خاسر.

وقد أعلنت النتائج بعد أسابيع، ففوجئ بنجاحه واستغرب الأمر.

فقال لوالده:

هل نحن في زمن المعجزات؟

لقد حدثت معجزة، ونجحت في المسابقة، وساعين مدرساً في ثانويات دمشق.

لسنا في زمن المعجزات أنا تكلمت مع يونس الخوخة وكان هو وراء نجاحك.

قال لأبيه غاضباً:

لم فعلت ذلك؟ لا أريد أن يفضل أحد علي بمنة أو معروف.

قال الأب:

إن يونس منا وفينا، ويحظى الآن بسلطة واسعة، وهو ملزم بمساعدتنا، ولن يقصر عن أداء الواجب

وجاء تعيينه من وزارة التربية، مدرساً لمادة الفلسفة، في ثانوية جودت الهاشمي بدمشق. ولأنه كان متفوق المعدل، عين في العاصمة، بينما توزع زملاؤه الناجحون في المدن وعلى الأطراف.

وسر ياسر لهذا الأمر، فقد وجد منبراً لطرح أفكاره، وقد خلق بالفطرة داعية، وعمل ياسر بجد ونشاط، لأنه كان يحب عمله، فنال إعجاب طلابه ومحبتهم، وغيرة زملائه وحسدهم، وسارت الأمور كما يجب.

وقال له أبوه، بعد مضي أكثر من سنة، على ممارسته عمله.

الم يأن الأوان لكي تتزوج من سارين، وقد مضى على خطوبتكما أكثر من سنة، أظن أنها تخرجت من جامعتها؟

لقد تخرجت، وعينت مهندسة في المحافظة، وافكر بالزواج منها قريباً، وارجو منك يا أبي أن تكون الحفلة بسيطة وفي إحدى الصالات المتواضعة.

كيف تقول ذلك؟ الا تريدني أن أفرح، وادعو الأصحاب والأقارب والمسؤولين، لأتباهى بك ويعروسك، وماذا يقول الناس عني إذا أقمت لك حفلاً متواضعاً؟

- إذا كأنت هذه رغبتك، فافعل ما يحلو لك.

وأقام له أبوه حفل زفاف في افخم فنادق العاصمة، وفي الصالة البانورامية، حضرها لفيف من كبار المسؤولين في الدولة وحضرها أيضاً يونس الخوخة نفسه، وبعض أعضاء حزبه، وقد قدم ياسر وعروسه سارين إلى الفندق بسيارة ليموزين طويلة ومحفوفة بالورود، وعندما نزل على باب الفندق، كأنت هناك جوقة من لاعبي السيوف، بلباسهم الفلوكلوري الملون. وعلى إيقاع الطبل وصليل السيوف صعدا إلى الصالة البانورامية، واستقبلهما المدعوون، وعلى رأسهم والده ووالدته، ويونس الخوخة أيضاً، ثم أجلسوهما على عرش تحف به الورود والشموع، وكأنت إلى اليمين الجوقة الموسيقية تعزف الألحان، ثم جرت مراسم تلبيس

الخواتم، ونقلها من اليمين إلى اليسار، وتقطيع قال:ب الكاتو الزاهي كهرم شامخ، وبعد ذلك بدأ الرقص، كأنت الحفلة عظيمة، فتحت فيها عشرات زجاجات الشامبانيا، وشرب الجميع نخبهما، متمنين لهما السعادة والرفاه، وسافرا بعد الحفل لقضاء شهر العسل في النمسا، حسب رغبة والده وعلى حسابه، قضياه في ربوع فيينا، ذلك البلد الجميل، وكأنت تلك الأيام من أروع أيام عمرهما، أخذا الصور، وارتادا الفنادق والمطاعم والمقاهي، ثم عادا إلى دمشق، ليتقبلا التهاني مجدداً بالعودة.

وفي يوم رن جرس الهاتف، فرفع ياسر السماعة، ليفاجأ بصوت زعيم حزبه القديم عبد البر عنيزان

مبارك زواجكما، وأتمنى لكما السعادة، أود المباركة وزيارتك في البيت.

على الرحب والسعة، وفي أي وقت تريد.

بعد نصف ساعة سأكون عندك هل هذا يناسب؟

ودخل عبد البر عنيزان بيته، وبارك له زواجه، وقدم له لوحة زيتية ذات إطار مذهب، فقبلها شاكراً.

وجرى بينهما حديث عن انشقاقات الحزب، وأن جناحه قد عاد تحت الأرض، لأن السلطة تطاردهم، بعد أن سلم يونس الخوخة اللوائح التي تحوي أسماء كل العناصر، وقال له :

سمعت انك رفضت الانضمام إلى الحزب الجديد برئاسة يونس؟

لقد علقت نشاطي الحزبي، ولا أريد أن انضم إلى أي فريق

على كل حزينا مفتوح لك ولأمثالك، ونتشرف بعودتك للنشاط، واعتقد أنك رجل مبادئ، لا رجل منافع و مصالح، وقر كنت دوماً بعيدا عن الأنتهازية، فمكانك أجدر بيننا، لكنك لا تقاعدت عن النضال، تكون خائنا لمبادئك ا ثم ودعه وغادر

قال ياسر لسارين:

كأنت زيارته لنا للحض على الرجوع إلى الحزب، وليس

زيارة مجاملة.

الناس تسعى لمصالحها وأهدافها، وأنت غارق في الأحلام

لو كان مصلحياً، أو تفعيا لسبق يونس إلى المغانم.

وأقاما في شقة الحلبوني الصغيرة، التي شهدت أجمل لقاءاتهما ، كما شهدت أيضاً أحلى أيام النضال ومراراته، ولا يزال يذكر كيف خرج منها ، عدة مرات مساقاً في الليل إلى التحقيق ورغم أن أباه قدم له دارة في حي المزرعة الراقي، يملكها أشبه بفيلا؛ إلا أنه رفض وأصر على البقاء بشقته تلك، فالناس يعرفونه هنا، وتوطدت علاقاته الاجتماعية من خلال المكان نفسه، فلماذا التغيير؟ لكن كان لأبيه رأي آخر، فقد قال: له يوما :

إن أفكار الحزب قد خربت عقلك، ونزعت منطق المصلحة

لديك، إن أخاك زهير قد فهم الحياة أكثر منك، فاجابه

كل إنسان مسير لما خلق له المبادئ أهم من المال، ربما لا

يدرك كثير من الناس، لذة مقاومة الظلم، والكفاح من أجل المحرومين

اما سيرته في الثانوية، التي عمل فيها مدرساً، فكأنت في أعلى الدرجات وأرقاها، هو الحرية البارع في إلقاء الدرس، وفي تسريب الفهم للعقول كانه السحر، وما ذلك إلا لأنه يحب مادته ومهنته، ويتقن عمله، وينال إعجاب طلابه، لكن المشكلة أنه كان من خلال درس الفلسفة، بمناسبة أو بدون مناسبة، يبذر نثرات من أفكاره، كمزارع ينثر بذور الأفيون حذراً من الرقابة والوشاة، فمثلاً كان يقول:

طلب العرب من الغرب أسلحة للدفاع عن بلدانهم، رفض الغرب تزويدهم بالسلاح، بينما أغدق السوفييت عليهم السلاحوبثمن بخس، وأحياناً بدون ثمن أو كان يقول خلال الدرس بمناسبة وبدون مناسبة، وهو يشرح درس المنطق والأخلاق، فيقول:

إن البرجوازية بأخلاقيتها، المتهتكة الفاجرة المستغلة الظالمة، هي سبب شرور المجتمع، إنها أحيانا تتستر بالدين للوصول إلى السلطة، وعندما تزول هذه الطبقة، ستعم الأخلاق الطيبة ويسود العدل.

وقد نبهه مدير المدرسة إلى ذلك، فقال: له :

لا تظن يا أستاذ ياسر أننا غافلون عما تعمل، إنك أحياناً

قدس السم في الدسم.

فأجابه:

ما اسم وزارتنا، التي تعمل انا وأنت تحت لوائها؟

وزارة التربية، لماذا تسأل؟

اليس من التربية، توجيه الطلاب ليعرفوا الصديق من المدر)

اليس من الواجب أن تربيهم التربية الوطنية ؟

لم ينط بك أحد هذه المهمة، واست مواجاً بها، مهمتك إعطاء درس الفلسفة، بدون زيادة أو نقصان

إنني أعمل بما يمليه علي ضميري.

بعد مدة جاء رجال الأمن، وسحبوه من قاعة الدرس وفي الفرع أجروا معه تحقيقاً قاسياً ، ولم يجد يونس الخوخة بدأ من التوسل له، فأفرجوا عنه. ورغم دقته وحبه للعلم والتنظيم، إلا أن حياته الخاصة اتسمت بالتصوف، فقد اقلع عن التدخين، لكنه عندما يداهمه إزعاج أو يغشاه فرح يدخن، لكنه قليلا ما كان يشاهد وهو يدخن، ولم يعش

الحفلات الاجتماعية، وكأنه قد نكم على ذاته، أو انزوى لإعادة النظر في نفسه. اين اصاب و ابن الخطا فيما مضى من حياته؟

أما الخمرة فلم يعاقرها، إلا حينما يزور رفيقه مزيد الخشن وبعد إصرار من مزيد على مشاركته احتسائها، ويبدو أن مزيد مكلف من عبد البر عنيزان باتباع منهج، من شأنه إعادة ياسر إلى جناحه بشتى السبل.

(٣)

خلال السنوات السنة المنصرمة، التي تلت زواجه من سارين انقطعت كل نشاطاته السياسية والحزبية، لقد تفرغ ياسر الشؤون أسرته التي كبرت، فقد رزق بولدين ذكرين هما : كفاح وثائر سيدخلان المدرسة والروضة عما قريب، وانشغلت سارين بهما عناية وتربية وتوجيها، فزادت أعباؤها ، لكنها لم تترك وظيفتها كمهندسة بالمحافظة، واضطرت لتوظيف مربية، تداوم طيلة الوقت في بيتها للعناية بالولدين والطبخ وباقي شؤون المنزل

وأجبرها الوضع الجديد على تخصيص غرفة مستقلة لها لتنام فيها ، وهكذا ضاق البيت الصغير في الحلبوني عن الأسرة التي نمت وعرض عليه أبوه شقة كبيرة يملكها في حي المزرعة، فرفض قبولها وفضل أن يستاجر شقة في حي الروضة، وقال: لأبيه

على كل إنسان أن يعيش من عمله، فلا يكون عالة على غيره، ويكفي انني سكنت سنوات بالحلبوني دون أجر. لكن مال أبيك، هو مالك أيضاً.

سأستاجر شقة تناسبني.

بعد البحث عثر على دار أرضية واسعة، تحيط بها حديقة فيها أشجار معمرة، مع مرج تتخلله زهور وعريشة من الياسين وشجرة ليمون.

كان ياسر في غاية الانشراح لعثوره على هذا المنزل الرحب النشط، واعتبر نفسه محظوظاً عندما استأجره، لأنه ابتهم بالحديقة الغناء الوارفة، وقرر العناية بها ويزرعها ، فالنبات يمتص الطاقة السلبية فينا، ويمنحنا الطاقة الايجابية، كما قال: يوماً لسارين. إنها هواية لازمته، عندما أحب نباتاته المنزلية، وها هو الآن يحوز حديقة، ويتوسع في هوايته، عل ذلك يكون بديلا عن نشاطاته السابقة.

وقد منحه العمل في الحديقة، فرصة لإزالة التوتر والضجر وأخذت الهواية الجديدة القديمة الكثير من وقته، وكأنت أعمال البستنة البسيطة، مثل زرع بعض النباتات المزهرة، أو تقليم أغصان الشجر المعمر، أو حتى قص السياج المحيط بالحديقة، تربحوتسعده، كان يمارس هوايته وطفلاه يلعبان حوله. بينما كأنت سارين في أكثر الأحيان تجلس على كرسيها ، لأخذ حمامها الشمسي القصير، متمتعة بمرأى الطيور المغردة التي تسكن الأشجار وتتلاعب فرحة بين الأغصان وتتنسم عبير الأزهار الفواحة التي تسكر الروح بشذى ساحر.

في أحد الأيام طرق الباب زائر. كان قد غاب عنه فترة من الزمن إنه مزيد الخشن

كان الوقت عصراً، والجو رائع ومبهج، والفصل ربيع الحديقة تفجر زهرها، فأضاءت ما حولها، فاقترح عليه أن يتناولا الشاي في الحديقة، وجلسا إلى طاولة وكرسيين، وجاءت المربية بالشاي ودارت بينهما أحاديث، قال: مزيد

أراك قد انقطعت نهائياً عن التنظيم، أتراك اعتزلت السياسة؟

- نعم انقطعت ولم أعد أرى أحداً، حتى يونس قريبي نفسه،

لم التق به خلال السنوات القليلة الماضية، إلا مرة أو مرتين وبمناسبة عائلية، أو مناسبتين ولم يدر بيننا أي حديث يتعلق بالتنظيم أو السياسة.

قال مزيد:

اتعرف ابنه حازم؟

نعم أعرفه ولكني لم أتابع أخباره، وقد انقطعت عني

اخباره منذ زمن بعيد، من يوم أن تخرج من كلية التجارة.

- لقد أصبح أكبر تاجر موز في القطر، وقد دخل أخوك زهير معه في شراكة بعدة أعمال يشوبها الفساد، ودون علم أبيك.

اندهش ياسر وتعجب ! وقال:

حازم نفسه؟ ! من أين له المال والخبرة ؟ وهو في العشرينيات.

إنه واجهة، أما التاجر الحقيقي فهو يونس الخوخة، رئيس الحزب، وقد أصبح يملك المليارات.

المليارات؟ !

نعم المليارات. وقد وضعت في مصارف سويسرية، وقد استطاع جراخيك إلى دائرته التجارية، مستفيداً من خبرته وماله

غاب يونس عنه سنين، وغاب هو عن يونس أيضا ، رغم القرابة و الصداقة القديمة العميقة، والنضال المشترك، حدثت القطيعة وكانه يئس من احتوائه أو تجنيده، فتركه والتفت إلى أخيه فانقطعت أخباره ردحاً من الزمن، وها هي أخباره، تأتي إليه اليوم من جديد بدون عناء.

وما أخبار الحزب القديم، وعبد البر عنيزان؟

في الحقيقة، هو من كلفني بزيارتك، طالباً عودتك للنشاط

لا أتحمس للعودة، وقد ضقت بالحياة الرتيبة، وأصابتي اليأس والإحباط علي التماس أمل جديد.

وأنت هل عدت؟

نعم عدت منذ سنة، ومارست نشاطي القديم، لكن الأمور أصبحت خطرة الآن.

لماذا ؟

ألقي القبض على عدد من الرفاق، وبعضهم هرب إلى

جهات مجهولة.

أنا لا اخاف النضال، ولكن يجب توفر القناعة.

ست سنوات أو أكثر، ولم تتوفر القناعة؟ إن عدم

انضمامك إلى يونس الخوخة، يعني أنك مقتنع بصحة توجهنا.

- نعم هذه هي الحقيقة، لكنني متردد.

اعتبر قولك هذا قرار عودة.

ساجرب العودة لفترة، أخبر الرفيق عبد البر بذلك.

طار من الفرح، ولم يصدق ما سمع، لاشك أن عبد البر عنيزان، سيفرح مثله أو أكثر ولكن لماذا استغرقت المراجعة كل تلك السنوات؟ وما معنى لفترة؟

ودعه وذهب مغتبطا، ليبث الخبر لرئيس الحزب.

لم يخبر ياسر سارين بتفاصيل اللقاء، ولا بقراره المفاجئ بالعودة لحزبه بل ذكر لها اخباراً عن حازم ابن يونس الذي أصبح أكبر مستورد للموز، وعن انغماس زهير في الفساد والشراكة معه.

فقالت:

لماذا تستغرب ذلك؟ لقد أخذ الرجل منحى جديداً، منذ شق الحزب، وتزعم جناحه.

قال: لها متحسراً :

كان يسمي نفسه رجل مبادئ الآن أصبح من أعظم البرجوازيين والتجار.

أجابته:

لم يكن في يوم صاحب مبادئ أنت كنت المخدوع، وكان هو ممثلاً بارعاً.

- هل يعقل أن يتقن التمثيل لهذه الدرجة؟ فقد كان حديث

يتدفق، إيماناً وثقة بالأهداف.

لا تشغل بالك بما لا يستحق، المهم أن تعرف أنت أين تكمن مصالحك، فالكل يسعى نحو مصالحه، وأنت مغرق في مثاليتك وخيالاتك.

ثم استطردت:

هل كان أبو يونس الخوخة غنياً كابيك؟

نشأ يتيم الأب، منذ كان في الثانية، فقد دعس قطار أباه عندما كان يعبر السكة مع دراجته، وماتت أمه من الجوع والهم بعد أربع سنوات من موت أبيه وكان في السادسة، ووجد من يسلمه لدار الأيتام، ومن هناك بدأ مسيرته بانضباط ونظام، وحيات جماعية تعلم منها الكثير. كان دخوله الحزب، رد فعل على البؤس الذي عاناه.

كثير من الأشخاص، مرشحون للتطرف بدوافع العقد أو الحقد

ثم قال:ت وكأنها تريد أن تغير منحى الحديث، الذي أصبحشديد القتامة:

أتعرف أننا لم نخرج لوحدنا، لنتعشى في مطعم منذ وقت

طويل؟

السبت ليلة الأحد نسهر في مطعم (الفرسان).

فكرة ممتازة لنستعد لها من الآن.

في ركن هادئ جميل، في مطعم الفرسان، جلسا إلى طاولة قرب الشلال المتدفق، والنباتات المعرشة المتسلقة، التي تظللهما بحنان الأوراق الأشجار السامقة حولهما حفيف بفعل النسائم، أنعم من موسيقى، فتذكرا ليالي فيينا، والشهر العسلي الطعم في تلك الربوع

ما أسرع الزمن (وما أقصر العمر است أو سبع سنوات مرت ولم تتحقق الأحلام الكبيرة، التي حلم بها في مراهقته.

قالت وقد وجدته شارد الفكر

بماذا تفكر؟ هل أنت تحلم، أم أسرك المكان بسحره؟

وقبل أن يجيب، سمعا من أقصى الحديقة، الألحان الشجية الناعمة، وهي تتطلق من جوقة، توضعت على منصة ناهضة واختلطت الموسيقى بالحان تدفق المياه من الشلال، مع حفيف أوراق الشجر، فلفهما سحر غامر قال: وكأنه استفاق من حلم جميل

سنوات سبع مرت غفلنا فيها عن متع الحياة. استهلكنا العمل، دون مردود كبير، حتى حلم الماجستير والدكتوراه غاب وكاننا عجزنا عن تحقيقه، وتبخرت أحلام المدينة الفاضلة وتركت التنظيم الذي عشقت، وكان الهدف هو الإنجاب

وسمعها تقول:

في الحياة أشياء جميلة، تحيط بنا ولا تنتبه لروعتها، ولا نعيرها اهتماماً، مع أنها مصدر ثر للسعادة والتمتع بشباب العمر.

- صغائر الحياة سراب خادع، من خلاله تضيع الأهداف

الكبيرة، ما أتفه أن ينغمس الإنسان بغثاء الحياة وتوافهها الكن علينا بالمقابل، أن لا ننسى المتع والملذات والرغائب، أحيانا تحجب عنا تلك المتع بفعل العمل المرهق، فلا

نشعر بوجودها، وأحياناً يتوهم الإنسان، فيظن نفسه بطلاً، وأنه يقوم بتغيير مجرى حياة العالم، أو أنه يحول مجرى الكون، وبنهاية المطاف، لا يحصد إلا الخيبة، مكتفياً بأمجاد الماضي، واقفاً في منتصف الطريق.

فهمت إلى ما يرمي من حياته، فقالت:

غناء؟ هل كأنت نضالاتك الماضية، أو حتى سجنك سخافات او

لا لم تكن كذلك، لكنها أشجار بلا ثمر، صرفتني عن

روعة الحياة، التي علينا أن نتمتع بتفاصيلها ، وأصابتني

بالإحباطات إخفاقات الرفاق وخياناتهم.

أقصد تلك الانقسامات التي لا تحمل أي هدف إلا الصراع على الزعامات والمصالح، وكنت أتمنى أنتصار الأفكار، التي أنفقت أحلى سنوات عمري من أجلها.

لكنها تجربة على كل حال؛ وإن كأنت مرة.

هي أكثر من علقم، إنها فجيعة، تركت آثاراً لن تمحى.

صحيح أن المرء يستفيد من التجربة، لأنها تغني النفس وتوسع الأفق، ولكن ثمن الدرس قد يكون باهظاً، في أكثر الأحيان، وقد يعود التمسك بالإيمان إلى فاجعة.

وقد يعود بكنوز قارون، لمن يعرف من أين تؤكل الكتف.

أنتبه المصالحك، فالجميع تحركه المصالح. أنت غارق في مثالية ستؤدي بك إلى الإملاق.

إن من ينتسب لحزب ليقطف الثمار والمناصب أنتهازي دجال.

قلة هي التي تسعى لحمل الرسالات، وهي من تدفع الأثمان الباهظة الثورات يقطف ثمارها الأنتهازيون.

أنا لم أسمع للمناصب ولا للثروات، بل كنت أسعى لنصرة المظلومين والمحرومين، ومشكلتي انني توقفت أو ضعت.

الحياة ولكن نضالات يونس الخوخة، عادت عليه بالثروات ومتع

- قبض ثمن الخيانة، وسلم رقاب رفاقه كالنعاج، فلن يستريح له ضمير.

قالت له وهي تحسم الجدل

إليه خطأ ما في مكان ما حصل، حتى وصلت أنت إلى ما وصلت

ابن برجوازي، ينضم لحزب يساري، يريد نزع الملكيات من أصحابها، كانك تناضل ضد نفسك وتريد تجريد أبيك من أمواله، التي هي بالمحصلة أموالك

كوني ابن برجوازي؛ تنكر لطبقته وناضل ضدها هو قرينة على إيمان حق منزه عن الغرض والمنافع، وهو إيمان حقيقي

بقضايا المضطهدين، الم يخرج لينين نفسه من أسرة برجوازية؟

ورغم كل ذلك، أنت الآن غير راض عما مضى، بسبب خيانات الآخرين

- ما النضال إذن في مفهومك؟

النضال الحقيقي، هو السعي لمصالحك ومصالح أسرتك

أراه في مجال عملي الحيوي، فأبرع فيه، وأبدع وأتفوق على اقراني، أزهو بنفسي وافتخر، أحلم بمنصب قد يأتي وقد لا يأتي لكن هذا الحلم بحد ذاته، يدفعني للإجادة والجلد والإصرار وبالنتيجة إتقان عملي أربي أبنائي التربية، التي أراها تعلي من شاني وشأنهم، ليقودوا عملية التغيير الفردي، بعد أن عجز الآباء عن تغيير المجتمع، لماذا تتعب نفسك، وتأخذ الثور من قرنيه، إذا كان بإمكانك السيطرة عليه بالحيلة والمراوغة.

هذا الكلام جميل في ظاهره، وإذا تعمقنا به سوف يؤدي

بنا إلى الطريق نفسه، التي سلكها يونس الخوخة.

ان يونس الخوخة قد حقق أمجادا لنفسه وأسرته، ويوما ما سينادر إلى روسيا أو سويسرا، ويتمتع بالثمرات

- افكارك هذه تخيفني.

وجاء العشاء، وتغير رتم الموسيقى واتجه للإيقاع الراقص

وقام بعض الشباب والصبايا يرقصون، فقالت:

لكل جهل دور هاهم يقطفون الرغبة واللذة من شتى السبل، ويتمتمون بزمن حرمت أنت من متعه.

هذه الأجيال، التي يمثلها هؤلاء، لا دور لها في مجتمع همش ابناءه، و لم يعرف أن يسند إليهم إلا أدوار (الكومبارس)، ماعدا الفئة المختارة، التي عرفت كيف تلوذ بمن يحقق لها الأهداف الشخصية، أو التي جاءها المال عن طريق الفساد، فبيضته

على المستوى الدولي النتيجة أن كل دول العالم الثالث مهمشة لا دور لها.

- لا ليس كلها، وعلى العموم، إن رجلاً لا دور له في دولة لها دور أفضل من رجل له دور في دولة لا دور لها. غالبية هكذا مجتمعات ضعيفة، لادور لها على المسرح على هذه الأجيال أعباء كبيرة عليها أخذ دورها بقوة، لترفع مجتمعها وتطوره، ليأخذ دوره بين المجتمعات، وهذا ما كنا نناضل من أجله في الحزب.... وسنظل نناضل.

قالت:

وماذا كأنت النتيجة؟ بعض دول العالم الثالث اعتمدت على الخبرة الأجنبية، والاقتصاد المدروس، ولم تقيد نفسها بأية عقيدة فلسفية غربية أو شرقية تضعها مثل قطار على سكة أو شرنقة بل بقيت حرة، تتطور مع العلم والحياة، وكرست سيادة القانون

بشكل فعلي، وتخلت عن الروتين، فبلغت شاوا عظيما، فاق الدول العظمى اقتصاداً ونمواً، وبلغ فيها دخل الفرد أعلى مستوياته، وهذا برأيي مقياس التقدم بعض دول الخليج مثلاً، أو دول في جنوب شرق آسيا ،

نجاح اقتصادها، باعتمادها على أرقى الخبرات، وتخليها عن الفساد، ساهما في ذلك، ولكن منهجها رأسمالي وتطورها شكلي التطور الحقيقي يعني إقامة مصانع القيلة، ومفاعلات ذرية للأغراض السلمية. إن اقتصادها جاء من السياحة والسمسرة

ولولا وجود الثروة في باطنها، لكان أبناؤها ما يزالون يصطادون اللولو من أعماق الخليج.

لا تجعل من الوسيلة غاية، ما دام الإنسان هو الغاية، فكل الأيديولوجيات الفاعلة في خدمته، ومن الخطأ أن نجعله خادما لها.

وظهور يونس الخوخة، وأمثاله خرب الأيديولوجيات

قالت بأمل:

رغم كل ما جرى على الإنسان الا ييأس.

واخذهما الحديث عن تربية الأولاد، وعن آمال المستقبل، ونسيا

الوقت.

قالت:

لنذهب فقد جاوزنا منتصف الليل، وعلينا المغادرة.

ولما وصلا البيت، كان كفاح وثائر، نائمين الخادمة وحدها

كأنت مستيقظة، وبينما كان هو يحاول نزع ثيابه، سمع من بعيد إطلاق نار، وأصواتاً قوية ومطاردة، بعد ذلك تعالت طرقات على باب داره، عنيفة وقوية.

فزعت الخادمة، واعترى زوجته هلع استطاعت كتمه. قال:

من يطرق بابنا في مثل هذه الساعة من الليل؟

خرج من غرفته، ووقف خلف باب الدار، وصاح

من الطارق؟

وجاءه صوت رفيقه، مزيد الخشن يقول:

افتح ياسر الباب بسرعة، أنا مزيد الخشن، فتح الباب

فاغلقه مزيد خلفه بسرعة وقال:

لتختفي فوراً، إنهم يلاحقوننا.

من هم؟ أخبرني ما الأمر؟

رجال الأمن والمباحث، يطاردونني وفي طريقهم لإلقاء القبض عليك

ولحظ ياسر في يد مزيد مسدساً، فقال:

ولماذا هذا المسدس المشهر بيدك؟

أطلقت عليهم بعض العيارات النارية، كي يتأخروا بالوصول إلي

هل أصبت أحداً؟

لا أدري، إذا لم تسرع بالهرب، سيقبضون علينا.

يقبضون عليك انا ما دخلي في الموضوع !

كل أسماء الرفاق معهم وأنت منهم، للسرع وللهرب عن

طريق السطوح

أصاب الخوف والوجوم سارين، فلم تنطق بشيء.

والتفت إليها باسر، وقال:

- ساعود لا تخافي وإذا طرقوا الباب للتفتيش، فدعيهم يدخلوا، وقولي لهم: إنني مسافر عند خالتي في حمص، ولم يدخل بيتنا أحد.

وتسورا السطوح، وانطلقا يعدوان من سطح إلى سطح، حتى ابتعدا عن داره مسافة بعيدة، ثم نزلا إلى أحد الدور، وكأنت عبارة عن دار قديمة، مبنية حسب طراز تلك الأيام، فيها صحن الدار الواسع، وتتوزع أبواب الغرف على الجوانب، بينما كأنت الأرض مبلطة بحجارة بازلتية زرقاء، وكان في منتصف صحن الدار، حوض ترابي كبير على شكل مستطيل، فيه شجرتان كبيرتان، ونباتات وورود

عرف ياسر أن هذه الدار تعود إلى (رضوان القلموني)، وهو مؤذن، يوم بالمصلين في جامع القرملي، المشهور في الحي

وكان ياسر يعرف أن رضوان هذا ينتمي لحزب ديني، هو حزب التيمم والمعاضدة)، ورئيسه الدكتور مصعب الأردغلي والذي أصبح منذ وقت قريب مدير الأوقاف وانشق عن الحزب والتحق بالحزب الحاكم، بعد أن سلم لوائح حزبه للأمن وكان بين حزب

اليسار المتطرف، وحزب التيمم والمعاضدة خصومة قوية ، وعداء فكري مبين فيما مضى، أما الآن؛ فقد تقاربا عن طريق الجبهة التي يقودها الحزب الحاكم

فالمتدينون في حزب التيمم، كانوا يصفون اليساريين بالملحدين، وهؤلاء ينعتونهم بالظلاميين والحزبان كلاهما يتنازعان على المناصب والكراسي مسخرين الأيديولوجيات للوصول

قال مزيد الخشن:

علينا أن نخرج من هذا المكان، قبل أن يقوم رضوان القلموني بالإبلاغ عنا الصبح قريب وسينهض من فراشه ليتوضا ويذهب إلى الجامع.

قال ياسر:

علينا إقناعه إذا ضبطنا واكتشف أمرنا أن يساعدنا أو يتركنا في حال سبيلنا على الأقل. وعلى العموم هو غير مرضي عنه، لأنه وقف ضد زعيم حزبه مصعب الأردغلي، الذي اعتبره مرتداً وغدر بإخوانه.

وبينما هما يشتركان في الهمس والنقاش والتفكير، خرج رضوان القلموني من غرفته، متجهاً إلى الحمام ليتوضأ. دلفا إلى باب مفتوح، فأدى بهما إلى المطبخ وكان الطريق إلى الحمام، يمر عبر المطبخ، فلما وصل الشيخ رضوان إلى المطبخ، أشعل النور ففوجئ بالرجلين ارتعب وانصدم من المفاجأة ففزع وأصابه هلع شديد، وكاد أن ينهار لكنه تماسك.

ولما عرف ياسراً قال:

ماذا تفعلان في داري أيها الملحدان !

قال ياسر:

الأمن والمباحث تلاحق رفيقي مزيد الخشن، وقد حاول الالتجاء لبيتي، فأدخلته وأغلقت الباب، ثم هربنا من على السطوح، وضاع أثرنا، ووجدنا دارك هذه فاختبانا بها، وذهبوا خائبين

للبيوت حرمات، وأنتم دخلتم بيتي كاللصوص، سأتصل بالشرطة، لتعاقبكم على هذا.

قال ياسر:

أنت يا شيخ رضوان رجل مؤمن وتعمل بما أنزل الله، الذي

يقول في كتابه العزيز: " وإن أحد من المشركين استجارك فاجره ونحن لسنا ملحدين أو مشركين. وقد استجرنا بك وببيتك، نأمل

الحماية وسنخرج بعد قليل.

تأمل الشيخ رضوان القلموني، وقال:

أنت ملحد وتحفظ آيات من كتاب الله؟

نحن لسنا ملحدين، ونحفظ آيات القرآن، ونريد رفع الظلم وإحقاق الحق فإغاثتنا واجب ديني.

قال الشيخ رضوان:

ساذهب الآن للمسجد، لأؤذن لصلاة الصبح، وازم بالمصلين، ثم ارجع إليكما، فانظر في أمركما.

والآن أدخلا إلى غرفة الضيوف.

فدخلا إلى غرفة الضيوف، وقد هذا روعهما. وإذ بالشيخ رضوان يحمل صحنين من الرز بالحليب، مع ملعقتين ورغيف ويقول:

- سأغلق عليكما الباب، وأرتج القفل خوف أن يراكما أحد من أبنائي أو بناتي، فكلا و اهنا، وعند عودتي نشرب القهوة، لا تخافا لست بغدار، ولا خائن بل متعاون ومساعد.

قفل الباب وغادر الدار

تعجبا من تصرف رضوان، وأملا بالفرج.

قال مزيد الخشن:

كم هو طيب ونبيل هذا الرجل ! شأن كل أبناء هذا الوطن.

كأنت سارين بعد مغادرتهما خائفة، سمعت . طرقاً على

الباب وصياحاً وشخصاً، يقول: بصوت عال متشنج

افتحوا الباب، وإلا أطلقنا النار على القفل، وفتحناه عنوة.

تلكات سارين قليلاً، لتتيح لهما الوقت بالابتعاد والهرب و استمدت من خوفها وتوترها شجاعة، وفتحت الباب

قال رئيس الدورية :

من صاحب البيت؟ ومن يختبئ عندكم؟

صاحب البيت زوجي ياسر الخوخة، وأنا سارين، مهندسة موظفة في المحافظة، أولادي في غرفهم نائمون، وزوجي مسافر

وهذه خادمتي.

إلى أين سافر زوجك؟

سافر إلى مدينة حمص، لعند خالته.

هل دخل رجل مطارد لبيتكما، وفتحتم له الباب؟

- لا لم نر احداً، ولم يدخل لبيتنا أحد.

- أراك في ثياب الخروج والسهرة، فأين كنت؟

عندما سمعت الطرق، ليست هذه الثياب، وليس من الأصول أو الحشمة، استقبال الطارق مهما كان بلباس النوم.

قال لعناصره:

فتشوا البيت بدقة.

فتشوا بيتها غرفة غرفة ونبشوا الحزن، وبعثروا أدوات المرافق، فلم يجدوا شيئاً. وخرجوا بعد ساعة من التفتيش، خاليي الوفاض

كان جوال ياسر، قد فقد شحنه، وكأنت هي تتصل فكان خارج التغطية، وانشغل بالها، وذهبت بها الظنون كل مذهب، فلم تستطع النوم تلك الليلة.

عاد رضوان القلموني من صلاة الفجر، ودخل البيت بمفتاحه.

كأنت امرأته وأولاده مازالوا نائمين، ولم يعلموا بما جرى، وعندما فتح الشيخ رضوان باب غرفة الضيوف، التي أغلقها عليهما قال:

السلام عليكم أيها الجاران لقد قررت مساعدتكما ، عسى الله أن ينور طريقكما بالإيمان

قال ياسر الخوخة:

كنت متأكداً من معدنك الأصيل، وإيمانك العميق، نفعنا الله ببركتك يا مولانا.

ذهب الشيخ إلى المطبخ، وعمل القهوة، وهم يرتشفونها قال:

من الأفضل لكما السفر إلى لبنان، لقد أصيب أحد رجال الأمن والمباحث الذين كانوا يطاردون رفيقك مزيد هذا بطلق ناري، وإصابته خطرة، وقد سمعت هذا الخبر من بعض المصلين.

قال مزيد الخشن:

ولكن منافذ الحدود مراقبة، وسيلقى علينا القبض أن سافرنا.

قال الشيخ:

لن تذهبا من منافذ الحدود.

من أين نذهب إذن؟

- لقد هرب العديد من عناصر حزب التيمم والتعاضد بعد الانشقاق، عن طريق يبرود، وعبر طرق جبلية غير مطروقة وغير معروفة، وكان هناك سائق مختص بعملية الإيصال هذه، ويتقاضى مبالغ لا بأس بها ، لكنه يوصل الأشخاص إلى بيروت بأمان ساتصل به وأخبره

قال ياسر:

هل بإمكاني أن أشحن هاتفي الخليوي عندك؟

قال الشيخ:

نعم وإذا لم يكن عندك شاحن، فساعطيك شاحن

قال مزيد:

سمعنا عن الانشقاق في حزب التيمم والمعاضدة، كيف حدث ذلك؟

تعلمون أن رئيس حزينا، هو الدكتور مصعب الأردغلي منافق كبير، يحب الحياة الدنيا ، يرائي في صلاته، ويغش في تعاملاته، وقد انخدعنا به

حاول بناء مجد شخصي، فتقرب من السلطة، وقايضهم بتسليم

أسماء ولوائح التنظيم على منصب وزير أو مدير أوقاف على

الأقل، ووعدوه بالسيارات والمال والعز.

ماذا عمل بعد ذلك؟

أعطى القوائم بأسماء أعضاء الحزب للأمن، وزعم بأنهم سيخربون مؤسسات الدولة، وأنه سيجهض محاولتهم قبل ظهورها فلاحةوهم، وزجوهم في السجون

كم بقي معه من الرجال

لم يبق معه إلا القليل على شاكلته، وقد قصم ظهر التنظيم

بهذه المقايضة.

قال ياسر:

من فضلك يا مولانا، اتصل بالسائق حتى تغادر مبكراً.

اتصل ياسر بزوجته وطمانها إلى أنه في مأمن، لكنه سيسافر إلى جهة مجهولة، يعلمها بمكانه حين الوصول، فهدأ روعها

قليلاً، وقالت:

هل أخبر أباك بالأمر؟

لا تخبريه سأخبره أنا بنفسي، مع السلامة.

قال الشيخ رضوان:

هل معكما نقوداً كافية؟

قال ياسر:

معي من النقود، ما يكفي لي ولرفيقي للإقامة في بيروت

لمدة شهر.

قال الشيخ رضوان:

- سازودكما بكتاب توصية ومساعدة عندما تصلان بيروت ادخلا مسجد التقوى، إمام الجامع يدعى الشيخ حامد الأغبر هرب من دمشق بقرية من مصعب الأردغلي، ونجا مع أنه لا ينتمي لتنظيم، بل يقول الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، وعين إمام جامع التقوى، بتوصية من عمه البيروتي، ومن سكان الحي الذين أحبوه ساعطيكما كتاب التوصية، هذا ليساعد كما ويرشدكما إلى نزل أو بيت تستأجرانه

وإياكما النزول في الفنادق، لئلا يكتشف أمركما وتخطفان لتعودا إلى السجن في سوريا. فقوات الردع والأمن السوري المسيطر في لبنان، منتشرون في كل مكان من لبنان.

بعد ساعة، جاء سائق السيارة أبو العزم، وكانا قد فرغا من إفطارهما، الذي قدمه الشيخ لهما، وركبا السيارة، بعد أن شكراه وودعاه

قال ياسر مخاطباً الشيخ:

لن ننسى هذا الفضل يا شيخ رضوان، وهو دين في رقبتنا وان شاء الله سنرد التحية بأحسن منها.

اتجهت بهما السيارة إلى بيرود، فوصلاها بعد ساعة، ثم اتجه بهما أبو العزم، إلى طرق جبلية وعرة وتخطوا الحدود، ووصلوا إلى بلدة عرسال في لبنان، عندها استلم السائق طريقاً إسفلتياً متجهاً

إلى بيروت وبعد المرور بعدة مدن وبلدات، وصلا إلى بيروت قبيل صلاة الظهر.

تركهما السائق بعد أن أخذ أجره وإنصرف

دخلا مسجد التقوى، وتوضأ ثم ذهبا إلى المحراب، للصلاة خلف شيخ الجامع.

بعد الأنتهاء، تقدم ياسر ومزيد من الشيخ وقال: ياسر

هل أنت يا مولانا الشيخ حامد الأغبر؟

نعم يا بني ماذا تريد ؟

أعطاه كتاب التوصية، الذي خطه رضوان القلموني، وبعد أن قراء لاحظا نظرة ارتياب وتوجس تلمعان في عينيه.

ثم قال:

- أنتما يساريان؟

نعم.

- يعني ملحدان؟

لا لسنا ملحدين، وها إننا منذ برهة، قد أنتهينا من صلاة الظهر.

على كل سأساعد كما ، مهما كأنت أفكاركما

واتجاهاتكما لأنكما سوريان، وهذا قاسم مشترك بيننا، وهذا وحده كاف للمساعدة، وأنا إن لم أفعل، أكون في هذه الحالة خائناً لأبناء بلدي.

شكراه بعمق، ودلت أساريرهما على عاطفة صادقة ومحبة.

وقال:ياسر خوخة:

ستجدنا في هذا المسجد معك باستمرار، إن شاء الله.

قال الشيخ حامد الأغبر:

لا تنزلا في الفنادق، سادلكما على بنسيون) في بيروت الشرقية، اسمه (بنسيون المحبة)، كنت قد نزلت فيه فيما مضى ستجدان فيه بعض السوريين أمثالكما على ما اعتقد، كما أن صاحبة النزل امرأة فاضلة، هناك لا يشك بكما أحد، وأظنه غير مراقب تماما.

وإذا سئلتما عن سبب مجيئكما إلى لبنان، فقولا من أجل العمل

ودعاه وانصرفا باتجاه (بنسيون) المحبة.

(2)

في الشارع وقفا مرتبكين، لاشك أن المسافة بين مكانهما وينسيون المحبة بعيدة ومرت سيارة أجرة فأوقفها ياسر وقال: السائقها :

هل تعرف بنسيون المحبة ؟

وأطل من نافذة السيارة السائق بوجهه المتغضن، والمليء بالندوب وقال:

نعم أعرفه أكثر مما ينبغي، إنه في بيروت الشرقية، قرب كنيسة المحبة.

قال ياسر في نفسه : (ماذا يعني بأكثر مما ينبغي؟)

كم يكلف ذلك ؟

ثلاثون دولاراً.

المبلغ كبير ولكن ياسر قال:

موافق

وصعدا السيارة، وسطعت أنفهما رائحة نفاذة تشبه رائحة عطر

خاص، وظن مزيد الخشن أن تلك الرائحة هي رائحة الحشيش.

ظلا صامتين، ولحظ السائق ارتباكهما فقال:

محسوبكم أبو أرز، واسكن في بيروت الغربية، من أين

الشباب؟

بادر ياسر قائلاً:

أنا أبو رمزي، وصديقي أبو سمير.

تعمد أن لا يعطي أسماء حقيقية، حسب توصية شيخ الجامع.

أنتما سوريان؟

قال مزيد:

لا. كيف خاب ظنك؟ وعلى ماذا اعتمدت؟ نحن من البقاع.

اعتمدت على اللهجة، رغم قصر الحديث، وثانياً ابن

العاصمة، أو حتى ابن المنطقة، لا يسكن في بنسيون مثل بنسيون المحبة، وقد سألتكما عن بلدكما ، لأن عندي داراً مستقلة، في بيروت الغربية، وهي قريبة من شارع الحمراء، وأفضل المستأجرين السوريين، لأنهم أصحاب ذمة ويدفعون.

وعلى كل، أجرتها ليست بأكثر من أجرة غرفتين عند المدام.

قال مزيد:

أي مدام؟

صاحبة البنسيون، تدعى مدام جورجيت

لملكما تنزلان عندها لأول مرة؟

قال ياسر:

أعطني كرتك إذا لم نتفق مع المدام، نتصل بك المعأينة الشقة، التي ذكرت، فإن كأنت مناسبة استأجرناها.

اخرج أبو أرز من جيبه كرت (فيزيت)، وأعطاه لياسر، الذي نظر فيه فقراً.

(عبد الإله الطرابلسي أبو أرز، سائق سيارة أجرة. استعداد للسفر لكافة المدن اللبنانية، وضمن العاصمة، وخارج لبنان)

وعلى البطاقة أرقام هواتف

ثم وضع ياسر البطاقة في جيبه.

بعد فترة صمت قال: أبو أرز

لماذا جئتما إلى لبنان؟

تضايق ياسر ومزيد من الأسئلة التي تتشابه وأسئلة المحقق

الأمني.

فقال ياسر:

جئنا بغاية العمل وكسب الرزق. أنا معلم عمار، وصديقي

نجار بيتون

لا يوحي مظهر كما بذلك.

- بماذا يوحي إذن؟

إنه يدل على انكما موظفان، أو مدرسان، أو سياسيان

هاربان من الأمن.

- علام بنيت ذلك ؟

إن وجهيكما لم يربا الشمس إلا في النادر، ولم يشبعا منها كفاية، والمهنتان التي ذكرت أصحابهما لا يفارقون الشمس إلا في غيابها.

قال مزيد وقد ضاق ذرعاً بالسائق:

أراك يا أبا أرز، تحب الاستطلاع، وكسب المعلومات وتجميعها لا أظن أن كل هذا من أجل تأجير دارك. فماذا كنت تعمل قبل مهنتك هذه؟

- كنت في جهاز المباحث اللبنانية، ثم تقاعدت قبل الأوان لأنني سرحت لأسباب لم اقترفها.

قال ياسر:

- وهل مازالت علاقتك بهم مستمرة؟ بعض الناس يعملون كمندوبين لهم بعد التقاعد، وتساعدهم سياراتهم في التنقل ومراقبة الآخرين.

- لا أنا لست من أولئك وعائلتنا بالأصل من طرابلس معروفة باستقامتها، وبإمكانكما أن تسألا عني، شيخ جامع التقوى

حامد الأغير، وهو سوري ومهاجر مثلكما.

بهنا من صراحته، وتعجبا، لكنهما لم يجدا جواباً فسكتا.

كأنت السيارة، قد وصلت إلى (بنسيون) المحبة في بيروت الشرقية، فقال: أبو أرز:

ها قد وصلنا البنسيون

نقده ياسر بالليرة السورية أجره، بما يعادل ما طلبه بالدولار وقبل أن يقفل عائداً قال:

مزيد اتصلا بي إذا أردتما الشقة، أو إذا وقعتما في مأزق، فقال:

- إذا وقعنا في مازق فيماذا تفيدنا ؟

ستعرف ذلك إذا وقعت في مازق، وعلى العموم، اتمنى أن لا يصيبكما مكروه.

ادار سيارته وقفل راجعاً.

قال ياسر المزيد :

بعد قليل ستكون أخبارنا عند الأمن اللبناني، ومن ثم قوات

الردع السوري، وجهاز استطلاعها.

لكنه لا يعرف اسمينا الحقيقيين.

إنه يعرف مكان إقامتنا.

قال ياسر:

ما رأيك لو نسأل شيخ الجامع عنه؟

هل أصبح شيخ جامع التقوى مرجعيتنا ؟ ثم إنه لا يعرف بواطن الأمور، وإذا كان قد عرف أبو أرز، فيما مضى، فربما يكون قد ركب معه في إحدى المرات، وإذا أردت السؤال المفيد التعرف حقيقة الرجل، فعليك أن تسأل شخصاً تثق به، يعمل في نقابة مكاتب سيارات الأجرة.

من أين لي أن أعرف أحداً منهم؟

إذن أصرف النظر عن هذا موقتاً، ولنمكث في البنسيون مقيمين وقتاً مناسباً، لنقرر بعد ذلك ماذا نعمل، وطرقا باب البنسيون

لم يكن باباً، يوحي أن المكان نزلاً، أو ما يشبه فندقاً صغيراً، ولم تعلق لافتة تنبئ بذلك، بل كان باباً حديدياً مزخرفاً ومشغولاً عليه بعناية، مثل أبواب الفلل

تبين فيما بعد، أنه يحوي خلفه بناء قديماً واسعاً، يضم عشر غرف وحديقة وبحرة رخامية في الوسط

فتح الباب، وأطلت خادمة عرفا ذلك من لباسها، ومن غطاء رأسها، الذي يلف شعرها، ومن ارتدائها (مربول) الجلي والتنظيف الذي يخصص عادة لخادمات المطابخ تفحصتهما بحذر وشك، ثم قالت:

نعم، ماذا تريدان؟

نريد أن نقيم لفترة في البنسيون عندكم، ونحتاج غرفة

بسريرين قالت:

ادخلا واتبعاني الغرفة المدام.

وصلا لغرفة صغيرة قرب الباب، فيها طاولة وهاتفان ووراءها تجلس على كرسي جلدي امرأة في الخمسين، أو أواخر الأربعين من عمرها، تلبس فستاناً أسود، فوقه (جاكيت) رمادية، كان شعرها مصبوغاً بلون ذهبي أشقر، وكأنت تضع على وجهها (مكياجاً) خفيفاً، بالكاد أخفى تجاعيد الوجه البسيطة، خاصة حول الفم والذقن وفوق الحاجبين، كأنت خدودها المصبوغة بالحمرة، قد بدأت بالترهل قليلاً وكان أنفها صغيراً وجميلاً، ومنسجما مع تقاطيع وجهها.

دعتهما للجلوس، فجلسا قبالتها على أريكة جلدية تهالكت حشوتها. قال:ت والحذر يلف ملامح الوجه:

أهلاً وسهلاً بكما.

قال ياسر:

أريد أنا وصديقي غرفة عندكم بسريرين فكم يكلف

ذلك؟

من أين أنتما؟

من سوريا.

بدون طعام خمس وعشرون دولاراً للشخص، مع الطعام الثلاث وجبات يتم تناولها في مطعم البنسيون، خمس وعشرون أخرى المجموع خمسون دولاراً لكل واحد في اليوم.

قال ياسر:

نريد الإقامة مع الطعام.

قالت:

البطاقات الشخصية من فضلكما.

اضطرا لإعطائها كل منهما هويته، فسجلت المعلومات في دفتر.

وقالت:

هذا الدفتر لا يطلع عليه أحد، وخاصة عناصر الأمن، فلا يزورونني، ولا يدققوا في القيود ومرة حضروا، فقلت هولاء الناس كلهم أقربائي ومعارفي، لذلك اطمئنا من هذه الناحية.

قال مزيد:

نحن لا يهمنا، إن عرف الأمن بنا أم لم يعرف، لقد جئنا لبنان للعمل، ولم نأت هاربين.

قالت:

ماذا تعملان؟

قال ياسر:

انا معلم عمار، ومزيد نجار بيتون

اخلت المدام ابتسامة هازئة وقالت:

لا داعي لإخفاء المهنة. في هذا البنسيون سوريون، ملتجؤون وهاربون من الأمن اطمئنا أنتما في أمان، وقوات الردع لا تأتي لمندي، وكذلك الأمن اللبناني.

قال ياسر:

في الحقيقة، نحن نبحث عن عمل، في دار نشر أو صحافة ولنا أعداء فنتقيهم بالكتمان، أو تغيير صفة المهنة، ولكن كيف عرفت يا مدام، اننا هاريان من بلدنا؟

تبسمت المدام باسى تم عن حزن دفين، فبأنت أسنانها السفلى مصفرة قليلاً، بفعل التدخين وقالت:

لو تعرفان، كم مر على جورجيت من حوادث وآلام، وكم علمتها الحياة، فباتت كعرافة، لأنها فهمت الناس، من سحنهم وتعبيراتهم.

لاحظ ياسر أنها تمعن النظر به كثيراً، وعندما يضبطها وهي تتفحصه، تشيح بناظريها وتهرب بهما باتجاه آخر، تكرر ذلك مرات

اضطرا لبسط سيرة حياتهما أمامها، ولكن بشكل مقتضب، بعد تلك الجلسة القصيرة، قامت وقادتهما إلى غرفة متطرف

فتحت بابها وقالت:

هذه غرفتكما بعد قليل سترتب الخادمة بهيجة الغرفة وتغير الشراشف، وحتى يحين الوقت، نذهب إلى مطعم البنسيون لنأخذ الشاي

دخلا غرفة الطعام، كأنت قاعة واسعة تحوي العديد من الطاولات المرصوفة بشكل متناظر. وعلى كل طاولة كرسيين.

من الألمنيوم الفضي والمقعد الجلدي الأحمر، بينما كأنت الطاولات صغيرة الحجم نسبياً، ومطلية باللون الأبيض المائل للكريم، وعلى كل طاولة إبريق ماء، وكأسان ومزهرية صغيرة بضمنها وردة ربما قطفت تلك الورود من الحديقة.

أجلستهما إلى طاولة قريبة من البوفيه، وكان هناك خادم يرتدي مربولاً أبيض، ويضع على رأسه وزرة بيضاء، فقال:ت له:

ثلاثة فناجين شاي من فضلك أبا سمير

بعد هنيهة حضرت الشاي وما زالت مدام جورجيت، تدقق النظر في ياسر، حتى أنتبه مزيد لتصرفها الغريب وألقى ياسر نظرة عبر نافذة بلورية عريضة، إلى حديقة الدار. كأنت البحيرة الرخامية مليئة بالماء، وما يزال يتساقط من نافورتها رذاذ، فيتغضن سطحها، تحيط الورود بالبحرة، وتكاد تنتشر في كل أرجاء الحديقة، وهبت نسمة فتحركت أوراق الشجر، وسمع لها حقيق وكأنت شجرة البرتقال:، تنوء بثمارها التي لم تقطف.

قالت المدام:

عندي زبائن مهمون سياسيون ورجال أعمال، هاربون من قدرهم، أو من أخطاء ارتكبوها. سيأتي الوقت فتتعرفان عليهم، ثم اردفت:

من الأفضل تحويل نقودكما إلى دولار، أو على الأقل ليرات لبنانية، فالناس هنا يتعاملون غالباً بالدولار.

جاءت الخادمة لتعلن لهما جاهزية الغرفة. فانسحبا من المطعم وغادرا شاكرين لها ضيافتها، وبدورها غادرت مدام جورجيت إلى مكتبها، ودخلا غرفتهما، وتفقد كل سريره، وعلقا بعض ثيابهما في الخزانة.

وقال ياسر المزيد :

لننم قليلاً، فقد لقينا في يومنا هذا الكثير من التعب، بعد ذلك تنزل لنشتري بعض الملابس والمنامات، وبعض الاحتياجات الأخرى، وسأتصل بزوجتي وأمي وأبي لأطمئنهم.

وغطا في نوم عميق.

استيقظا بعد ساعات. كان الليل قد هبط، وغرقت الغرفة في ظلمة. فقط بصيص من نور، يلوح من النافذة المطلة على الحديقة.

قام ياسر، يتمطى وأشعل النور. وبدوره نهض مزيد، فلبسا ثيابهما ، حسنا من هندامهما ، وخرجا من الغرفة، باتجاه بوفيه المطعم.

كان مسؤول البوفيه أبو سمير، ما يزال موجوداً وشخصان أو ثلاثة جالسون إلى طاولات في المطعم يشربون الشاي.

قال : مزيد المسؤول البوفيه أبي سمير

فنجانين من القهوة من فضلك.

- تكرم.

جلسا إلى طاولة قريبة. وتناول ياسر كأساً فارغة، فملأها ماء من إبريق وشرب كان يشعر بطعم مرار في فمه اصابه صدا وأحضر أبو سمير القهوة، وقال: بنكهة حديد

- تفضلا أيها الضيفان العزيزان، هل لي بالتشرف بمعرفتكما ، لأناديكما باسميكما فنحن جميعاً في هذا النزل أهل.

قدم كل منهما اسمه الحقيقي، لأنهما قررا من الآن، أن يكون كل شيء مطابقاً للقيود وللحقيقة.

وسأل ياسر أبا سمير

هل يوجد هنا، هاتف عمومي للمكالمات الخارجية؟

في البنسيون هنا لا يوجد ، ولكنك تستطيع من مكتبة فادي القريبة من هنا، وتقع على الناصية، أن تتصل بمن تريد.

وهل يوجد سوق قريب للملابس الداخلية والمنامات، وبعض الأدوات الخاصة، مثل أدوات الحلاقة وغيرها.

نعم في عطفة البردوني على بعد مئة متر من المكتبة إلى اليمين

- شكراً

أنتهيا من شرب القهوة، فنهضا وخرجا باتجاه المكتبة، بسهولة وصلا إليها، كان صاحب المكتبة يدعى فادي، وهو شاب في الثلاثين، أمرد، يضع سنسالاً ذهبياً في رقبته، وحلقة واحدة في اذنه اليمنى ويبدو وكأنه يشبه ما كان يسمى في زمن ما (بالبيز). وهم فئة قد ظهرت في الغرب، واتسمت بالبوهيمية واللامبالاة، والإباحية ونبذ القيم.

قال ياسر:

أريد إجراء مكالمة خارجية إلى دمشق.

- أعطني الرقم.

اعطاه رقم بيته في الروضة. بعد لحظات ردت زوجته فأجابها :

- هذا أنا، لقد وصلت بيروت بسلام. لا تخافي القصة وما فيها أن ملابسة حدثت، وسوء تفاهم قد وقع. ساحل الأمور، وأعود إليكم قريباً، كيف حال الولدين؟

بخير انشغل بالنا عليك، وقلقنا وذهبت بي الظنون مذاهب شتى، ولكنني قلت للأولاد انك مسافر وستعود قريباً.

ساتصل بأبي وأمي، لأطمئنهما لا تشغلي بالك. ستعود الأمور كما كأنت.

برعاية الله وحمايته.

لم أدار القرص إلى رقم أبيه، فرد عليه الأب بقلق، بان من لهجته الخائفة المنفعلة.

ابني ياسر. أين أنت؟ علمت بالأمر من سارين، التي لم تكتم الخبر، وعرفت ماذا جرى، وقد قلقت عليك أشد القلق، فأين أنت الآن؟

لا تقلقوا علي، أنا في بيروت بأمان، سوف تسوى الأمور وأعود إليكم. هناك سوء تفاهم قد حصل، وملابسة ستزول بعد أن يتفهم المولجون الحقيقة.

هل تحتاج شيئاً؟

أريد أن ترسل لي مبلغاً من المال، مع سائق أمين إلى بيروت

-ليعطيه بدوره إلى الشيخ حامد الأغبر، إمام جامع التقوى وإذا أحببتم أرسلوا لي بحقيبة البستي، وبعض أطقمي، وبعض القمصان من بيتي، سأخبر سارين لتعدهم.

غداً سيكون المبلغ عندك، ومعظم ثيابك وقمصانك وأحذيتك.

- أشكرك يا والدي جزيل الشكر. كيف حال والدتي لقد اشتقت لها ولدعائها.

لا بأس بها، وإن كأنت قد قلقت عليك لدرجة كبيرة، ولم

تتم تلك الليلة، هي بقربي الآن فتكلم معها.

تكلم مع أمه وطمانها، ووعدها بالعودة في القريب العاجل ثم أغلق الهاتف، ليعود مجددا ويتصل بسارين لتعد حقيبة ثيابه

وتعطيها للسائق الذي سيوصلها الجامع التقوى

قال مزيد:

هل تريد إجراء بعض المكالمات؟

ليس الآن، فيما بعد سأتصل في ريف دمشق الاتصالات صعبة، إضافة إلى أنه لا يوجد في بيتنا هاتف يتم ذلك عن طريق البقال: القريب من البيت.

وسأل مزيد صاحب المكتبة فادي

هل تصلكم الجرائد السورية؟

معظمها تصل، أما الصحف اللبنانية فتأتي في التاسعة جميعها إلى المكتبة.

وبدوره سأل ياسر فادي عن سوق الملابس والمنامات وأدوات الحلاقة، فدله على سوق البردوني على بعد مئة متر من المكتبة.

تمشيا في شوارع بيروت الشرقية، واعجبا بمتاجرها الأنيقة وديكوراتها البديعة، وكانهما في شارع أوروبي، كما أعجبا بمقاهيها ، ثم صادقا مطعماً فخماً، وكان الجوع قد نال منهما كل منال، ولم تدعوهما المدام جورجيت الطعام. ربما نسيت، أو اعتبرت أن طعامهما المستحق، سيبدأ من الغد.

طلبا من النادل طعاماً دسماً مفتخراً، ولشدة جوعهما طلبا ضعف احتياجاتهما ، ثم عندما حضر الطعام، وبدأ المضغ والازدراد، نسيا همومهما وأمتها بلذة الطعام بعد جوع، ثم التهيا من العشاء بفرح، تعجبا كيف انها على الطعام كله (فأصبحت المائدة الحاوية، إنه الجوع ولا أطيب من طعام إلا بعد جوع

خرجا من المطعم يتعنيان كان السوق مزدحماً، في المان الساعة من الليل، وكأنت النساء والصبايا منهن خاصة في ابهى الحال وأشدها إثارة، لم يلتفت ياسر إلى هذه الناحية، لكن مزيداً كان منشداً إلى الصبايا، بعين محرومة مكبوتة، وكان بافت

نظر ياسر فيقول:

الا ترى هذا الجمال الأسر الصارخ المدير

فيقول له :

عادي، والناس هنا يتشبهون بالغرب، فلم العجب؟

فقال مزيد:

- أراك شجرة بدأ اليباس يدب فيها، فتفقد نسفها: أما أنا

فنفسي ما تزال في أشد حالات الاخضرار

ضحك ياسر ولم يجب.

عادا للبنسيون بساعة متأخرة من الليل، كأنت المدام قد أعطت كل واحد منهما مفتاحاً، ولما دخلا كأنت ما تزال في مكتبها تسهر القيا عليها تحية المساء، فردتها بجفوة، وعندما اتجها لغرفتهما قالت:

استاذ ياسر أريدك دقيقة من فضلك.

تابع مزيد، وعاد إليها ياسر، فصافحته وأجلسته على كرسي قربها.

وقالت:

اعتقد انكم أناس مهذبون، واعتقد أنك أنت بالذات (جنتبلمان)، وقد وقعت من نفسي موقعاً حسناً، واعتقد انك موسر وابن نعم.

إن نزلاءنا لا يتأخرون كثيراً، عن الالتحاق بغرفهم بعد العاشرة، وفي أقصى حد عند الحادية عشرة، وقد نسيت أن أقول لكما مواعيد الطعام.

الفطور في التاسعة، والغداء في الثالثة، أما العشاء ففي الثامنة.

وهذه الأوقات مقدسة، وعلينا المحافظة عليها جميعاً، وإذا تأخر أحد ما أكثر من نصف ساعة، عن الموعد، يفقد حصته في الطعام، لأن المسؤول يغادر، وأنا لا استطيع أن أقدم له طعاماً، وفي هذه الحالة، على من يتأخر أن يتناول طعامه خارجاً؛ أما بالنسبة لك يا ابني ياسر ، فلقد وقعت من نفسي موقعاً فيه من حنان الأمومة الكثير، لأسباب سأبينها لاحقاً، وإنني الآن أعرض عليك صداقتي، وصحيح أنني ربما أكون بعمر والدتك، أو أكثر، إلا أن الصداقة تكون في كافة مراحل العمر، ولا أكتمك الأمر

فقد كان لي ولد وحيد يشبهك بدرجة لا تصدق، شبيه لك في

كل شيء في الطول، ولون البشرة، وتقاطيع الوجه، فلا تحرمني من نعمة التذكر، وكان ابني قد بعث من جديد.

تأثر ياسر من قولها وقال:

وأنا أيضاً ارتحت لك، وعندما التقيتك، شعرت بأنني قد عدت لبيتي، وأحب أيضاً الصداقة، فهي نافعة، خاصة في القرية، وإذا وجد امرؤ مثلي صديقة بعمر أمه في الغربة، فلن يفقد الحنان والعاطفة أبداً.

قالت مدام جورجيت:

ان زوجي وابني، قد قتلا في الحرب الأهلية اللبنانية بدون ذنب، وهي حرب كما تعلم مجنونة، لقد اقتتل الآخرون على أرضنا، ونحن لا ناقة لنا فيها ولا جمل، ولكن سياسيينا، أو بعضهم على الأقل، امتطوا الطائفية والمذهبية، لأغراضهم ومصالحهم ومنافعهم الخاصة، فتشظى المجتمع، وقتل بعضه بعضاً.

قال ياسر:

معك كل الحق، وفي تصرفهم هذا كل الظلم الظلم الذي كرهته، وخرجت على طبقتي طالباً للجميع العدالة.

- اخبرني عن حياتك.

سأخبرك بشيء منها. أنا ابن برجوازي، ولكنني تمردت على طبقتي، كما قلت لأنني وجدتها متسلطة مستغلة ظالمة،

فاضلت مع الفقراء، وهذا من أسباب وجودي هنا، ولكنني وجدت بعضهم يستغل كل موجة فيركبها، ويضحي برفاقه ويقفز فوق الأنين والدموع، ودماء المظلومين، فهم ليسوا بأفضل من جلاديهم، وأنا موجود عندك في هذا النزل بسبب ذلك. يشرفني أن تكون أصدقاء، ولقد أتيت إلى هنا بإرشاد من الشيخ حامد الأغير، الذي أشاد بهذا النزل الكريم.

. لقد نزل الشيخ عندي منذ سنتين، وأقام شهوراً في هذا النزل ومن خلاله عرفت حقيقة الإسلام، واطلعت على القرآن، وصححت نظرتي الجاهلة عن الإسلام والمسلمين، لأنني لم أقراهم، أو أعاشرهم، ظلمتهم في حكمي، إلى أن جاء الشيخ، وصححقراءتي، فأيقنت أن الدينين من منبع واحد الشيخ حامد رجل اخلاق متنور، ولم أجد عنده أي صفة من صفات التعصب، أو الكراهية للآخر، لقد أفهمني معنى الكلمة السواء، بين كل الأديان، أي الأرضية المشتركة، التي يتفق عليها الناس، كلهم ويتعايشون بمحبة.

فتحت درج الطاولة، وأخرجت كتاباً ثم قالت:

لقد أهداني هذا القرآن فقرأته معه، وشرح لي معانيه، هو حمال أوجه، فكنت دوما أعود للشيخ حامد مستفسرة، فشرح لي بعض آياته. إن الإسلام قد كرم السيدة العذراء، كما كرمناها نحن المسيحيين، بل وأكثر، ولم أجد اختلافاً كبيراً في

الأساسيات، فالوصايا العشر مشتركة والإله الواحد نفسه، كان الاختلاف في الجزئيات، وببعض اللاهوت والناسوت الذي تطور بعد المسيح وبدوري قدمت له العهد القديم والعهد الجديد فتراهما في هذا النزل، وتناقشنا فيه. إن الشيخ حامد الأغبر، رجل دين حقيقي، ورجل فكر، وليس رجل سياسة، ولا يسعى المنصب.

لكنه يعمل ضمن تنظيم يريد الاستئثار بالحكم.

لا لم يكن هو كذلك، لقد دلس عليه مدلسون، وغشه طلاب سياسة، ثم غدروه وأسلموه للجلاد، بعد إلباسه تهمة، هو منها براء، كما أسلم يهوذا الاسخريوطي سيده، لقاء ثلاثين من الفضة

- إذن حكى لك كل ما جرى؟

نعم وكنا كل ليلة، نسهر في هذا المكتب ساعات، واريد منك الآن أن تكون صديقي الذي أسهر معه وأجالسه ساعات.

لقد أسعدتني بهذا الطلب وستسهر من الغد كل ليلة.

استاذنها ملقياً عليها تحية المساء، وغادر إلى غرفته، فوجد مزيد الخشن برماً قلقاً، وقال له :

لماذا تركتني كل هذا الوقت وحيداً، وبماذا تناقشتما

وماذا أخبرتك؟

بمواعيد الطعام، وعدم التأخر في الرجوع إلى النزل وحكت لي جزءاً من حياتها ، فرثيت لحالها ، وطلبت مني صداقتها.

استغرب من عجوز حيزيون، تطلب صداقة رجل بعمر ابنها .

وما القاسم المشترك بينكما؟

الإنسانية، وحنان الأمومة.

لم يخطر ذلك في بال أفلاطون نفسه.

قال ياسر:

لقد تأخر الوقت وعلينا أن ننام سنذهب غداً إلى الشيخ حامد الأغبر على الحقيبة تكون قد وصلت إليه.

ولما أوى ياسر إلى فراشه فكر طويلاً، بأمر الشيخ حامد الأغير، وعظم في عينه، وقال: في نفسه : (لا يعرف الرجل إلا عند اختباره، أو الاحتكاك به، أو معاملته، كنت اظنه طالب سياسة، يلوذ بالدين متحينا الفرص

(٥)

في الصباح اجتمع بعض النزلاء، على طعام الإفطار، وكان ياسر ومزيد، قد جلسا إلى طاولة في وسط المطعم. في الوقت المحدد تماما قدم نادل المطعم لكل طاولة فطورها. ولاحظ مزيد أن على الطاولة التي تليه، وعلى مرمى مترين لا أكثر، فتاة رائعة الجمال في العشرين، تجلس مع امرأة انيقة ناضجة في الأربعين، فقدر أنها أمها، ولكن من الذي دفعهما إلى هذا النزل، وما هدفهما يا ترى؟ لاشك أنهما غريبتان عن المدينة.

كأنت الفتاة طويلة ونحيلة جميلة وانيقة ذات بشرة بيضاء مشعة بالق تشويه حمرة خفيفة، وكان شعرها الأشقر اللامع القصير، يتدلى وبالكاد يغطي رقبتها الطويلة، وجهها كان مفرط النعومة متناسقاً، فبدت كالهة إغريقية منحوتة من رخام أبيض بلوري عيناها زرقاوان صافيتان، تذكرانك بهدوء البحر وصفائه غب صباح مشرق أما شفتاها الناضجتان المكتنزتان، وأسنانها اللؤلؤية، فقد كأنتا تلتقطان الطعام بأناقة وعذوبة مفرطة.

كأنت أمها تجلس إلى الطاولة بشكل جانبي، بينما تتصدر

الفتاة الطاولة، وكان للأم طلة بهية بأنفة وأبهة، لم يغادر الجمال وجهها النقي، رغم ولوجها العقد الرابع، وكأنت عيناها كميني ابنتها، زرقاوان صافيتان، لكنهما أقرب للرمادي، كأنت تبدو (ككونتيسة) من القرن التاسع عشر، في لباسها وأناقتها وطلتها.

وقال: ياسر موجهاً كلامه المزيد وقد رأه قد شرد وتوقف عن الطعام، وكان بالكاد قد تناول قطعة صغيرة من الجبن

بم تفكر، وأين غبت؟ إنك قد توقفت عن الأكل، مع أنني

أكاد أشبع.

قال مزيد:

- انظر بهدوء، وتلقائية وبطء، انظر لليمين، ستجد حورية هبطت الأرض لتغوي البشر، وقد أصابت بسهامها قلبي.

والتفت ياسر قليلاً للجهة، التي أشار إليها مزيد، فرأى الفتاة

وأمها، فقال:

فاجاتني أفعالك وحركاتك البارحة واليوم، فأيقنت أنك مشروع زير نساء.

لقد سحرتني الفتاة، وأرغب في معرفة كل شيء عنها، من أين أنت؟ ولماذا هبطت بيروت ونزلت في هذا البنسيون؟

من أين لي أن أعلم قصتها، وتفاصيل حياتها ؟

- اسأل مدام جورجيت عنها، فأنتما قد غدوتما صديقين

حميمين.

قال ياسر:

- في المساء سأشرب القهوة مع المدام، وأسألها عن كل النزلاء.

والتفت ياسر إلى اليسار، فرأى رجلاً في الستينات، ظن أنه يعرفه، فحملق في وجهه وتفحصه واستعان بالذاكرة، ثم قال: المزيد:

اليس هذا جواد شبروم، رئيس حزب الوحدة الناصري؟

التفت مزيد صوب الرجل منزعجاً، لأن ياسر أنتزعه من الحلم الذي داهمه وخدره كافيون. إنه يستثمر كل ثانية، في معرفة تفاصيل وجه الفتاة وجسدها، ويتوزع النظر ما بين الأم وابنتها . لكنه انصاع لإشارة ياسر، وحملق في الرجل الجالس إلى اليسار

وقال:

إنه جواد شبروم بذاته، وأعلم أنه قد غادر إلى لبنان منذ سنوات طويلة، وهو مطلوب للأمن ومطارد.

قال:ياسر:

بأي تهمة نسبت إليه يومها ؟

- بتهمة إلقاء متفجرات صوتية في الحارات والأزقة، بمدينة حمص بدل المنشورات للفت النظر فلوحق الحزب من يومها، هو ورئيسه.

قال ياسر:

- اذكر مرة أنني التقيت به في مقهى الروضة بحمص وكنت في زيارة خالتي، وقد جلست مع بعض الرفاق، نتسامر وتتشاور في شؤون الحزب يومها دخل جواد شبروم، وسلم على رفيقي وكانا أبناء حي واحد، فدعاء لشرب القهوة معنا، جلس سامتاً وعندما تكلم، عرفت أنه ضحل الثقافة، وغر في السياسة.

قال مزيد:

هو كذلك كما وصفت، لقد أتى السياسة متأخراً، ولم ينل قسطاً كبيراً من العلم، كما أن تجربته في النضال معدومة.

- ماذا كان يعمل قبل السياسة، وما مهنته؟

كان حلاقاً في حي باب الدريب الشعبي، وعنده دكان فيها كرسي حلاقة، ومصطبة عليها إسفنجة يجلس عليها الزبائن بأنتظار دورهم، كأنت دكانا بائسة، ومن الظلم أن يدعوها صالونا.

- إذا كأنت هذه حاله، فكيف خاض غمار السياسة.

في أيام الوحدة، الفى عبد الناصر الأحزاب وحلها. وأراد أن ينشئ تجمعاً، أو حركة تستوعب كافة أفراد المجتمع، بما فيهم بعض عناصر الأحزاب المنحلة، فأنشأ الاتحاد القومي)، الذي ضم خليطاً من الناس، من مختلف المشارب برجوازيون صغار وبروليتاريا، وأفراد كثر من الطبقة الوسطى، متعلمون وأميون بسطاء وخبثاء، يعني بالمختصر كان كسفينة نوح، الذي يجمعهم بالدرجة الأولى الولاء الكامل للزعيم بكل ما يصدر عنه من خير او شر.

- أظن أن جواد شبروم، يكبرنا بربع قرن على الأقل.

بل وربما أكثر، ولقد ذاق لذة السلطة، عندما تسلم نائب رئيس الاتحاد القومي بحمص، رغم أنه أقل المنتمين ثقافة وعلماً بالسياسة، وقد حكى لي رفيق حمصي عن تلك المرحلة، وعن أول اجتماع عقدوه، ليقترح جواد شبروم في جدول الأعمال، إزالة قلعة حمص من مكانها.

يا للعجب ! لماذا يريد إزالتها ؟

لأنها تحجب الرياح الغربية المنعشة، عن داره التي يقطن وضحكا ضحكة مجلجلة، ولفتا نظر الحضور بذلك. ثم قال: ياسر

ليتني أستطيع الوصول إلى محاضر الاجتماعات تلك، فربما عثرت على خفايا تضحكني أكثر.

عاد مزيد يتأمل الفتاة وأمها ، ولاحظ ياسر التماع عينيه، اللتين برقنا بوميض لافت، لكنه عاد من جديد يفكر بجواد شبروم لقد رغب بفتح حوار وقناة اتصال معه، بدافع من حب الاستطلاع أولا ثم من حب التقاء أبناء البلد الواحد، عندما يجتمعون في الغربة. وأخيراً بدافع معرفة الرجل وأفكاره، وإلى أين أنتهى.

ولما فرغا من طعامهما، وهما بالمغادرة قال: ياسر:

سنمر من قريه، كما لو كان ذلك صدفة، ثم نسلم عليه وكاننا فوجئنا به لاننى اريد صداقته

ومرا من قرب طاولته فوقفا، عندها برهة وأنتبه الرجل إليهما، فتفحصهما ليعرف ماذا يجري.

قال ياسر:

مرحباً يا ابن بلدنا سوريا ، الست أنت الأستاذ جواد شبروم؟

ابتسم الرجل، لكنه نظر إليهما بشك وربية، ومع ذلك رسم ابتسامة مودة على وجهه، الذي ظهرت تجاعيده واضحة ثم قال:

نعم أنا هو. فمن أنتما ؟

انا ياسر الخوخة من دمشق، وهذا صديقي مزيد الخشن.

لماذا أنتما هنا؟

الذي أخرجك من بلدك أخرجنا ، وهذا سر وجودنا هنا.

اليس ابن عمك يونس الخوخة، الذي قاد الانشقاق الأخير في

لحزب اليساري الراديكالي.

نعم هو ابن عمي، ولكنني من جناح عبد البر عنيزان

فرصة عظيمة ومفرحة، أن القاكما هنا، وأن نكون في

زل نفسه. مما يهيئ لنا أجواء اللقاء باستمرار، وننعم بحوارات

يدة، وقد تكون متعارضة.

ماهو يطلب صداقة خطط لها ياسر بالأساس ورغبها، ولكن واقع جواد شبروم، لإقامة مثل هذه الصداقة، هي دوافع ياسر

ومزيد نفسها ؟

دعاهما للجلوس إلى طاولته، وطلب لهما القهوة، ثم أنهى فطوره، ويبدو أنه لم يأت عليه كله، وربما لم يشبع بعد، ثم قال: القرية تجمع ابناء الوطن، ولو كانوا من اتجاهات مختلفة أو متنافرة.

قال ياسر:

ولكن الذي يجمعنا معكم، أكثر مما يفرقنا.

ما هو؟

الاشتراكية.

قال جواد:

هذا صحيح، ولكن الاشتراكية الآن في خبر كان كل يحاول الهروب منها، أو المداراة في وصفها، بل أكاد أقول كل يحاول تحاشيها، بالفاظ قريبة من معناها ، فاستبدلوها بالعدالة الاجتماعية، أو اقتصاد السوق الاجتماعي، أو مجتمع العدالة والوفرة.

وبالمجمل أصبحت كجمل أجرب يفر منه الناس خشية العدوى

قال ياسر:

ما تقوله يحمل الكثير من الحقيقة، ويبقى الأساس هو المضمون، بغض النظر عن التسميات، لكن حزبنا ظل وفياً لها. وماذا عن عملك الآن، هل أنشأت حزباً هنا، أو تعمل ضمن حزب؟

ضحك جواد شبروم، وقال:

فتحت صالون حلاقة في شارع متفرع عن شارع الحمراء الرئيسي عند جادة أبي الدرداء وأسميته صالون (ناصر للحلاقة الرجالية).

كتم مزيد ضحكة كادت تخرج للعلن، وداري ذلك بالقول:

الا تتلقون دعماً من سفارات عربية ؟

عقب خروجي من سوريا إلى لبنان، قابلت سفير احدى الدول العربية، في شمال أفريقيا وأبديت تعاوناً واستعداداً، لإقامة حزب ناصري جديد في لبنان، فأعطاني مبلغاً تافهاً، لا يتجاوز مئة ألف ليرة سورية، وتعرف أن الهدية التافهة الحقيرة، تعني إذلال المهدى إليه، وفهمت الرسالة.

لم يعودوا بحاجة إلى تلك الأساليب القديمة، فدفعت المئة ألف خلواً لصالون الحلاقة، وعدت لمهنتي القديمة.

قال ياسر:

أليس في لبنان أحزاب ناصرية. فتنضوي إليها لتعمل ضمنها ،

أو تترأسها.

- نعم توجد أحزاب كثيرة من هذا النوع، تحمل تلك الأهداف، ولكنها لا تعترف ببعضها ، ولا تريد الجامع أن يجمعها ،

كل يريد الزعامة منفرداً، والوجاهة خالصة.

ثم توجه بالسؤال إلى ياسر الخوخة، قائلاً:

لماذا لم تنضو، تحت جناح ابن عمك يونس الخوخة، فتحظى بالزعامة وميزاتها ؟

يونس تحريفي وانشقاقي ومصلحي، لم يعد رجل مبدا.

- لم نعد نعرف من التحريفي؟ ومن الأصيل؟ فالانشقاقات تتكرس في معظم الأحزاب، ليلتحق بعضها، ويوالي السلطة الحاكمة، وبعضها الآخر يناضل بعناد ضدها، ليقال: عنه: إنه اصيل محافظ على مبادئه القديمة.

وحقيقة الأمر، أن الجميع يسعى إلى السلطة والمكاسب وآخر المستفيدين هو الوطن.

كان مزيد ما يزال يفكر في الفتاة وأمها، ويشارك في الحديث أحياناً، لكنه يغيب عنهما أكثر الأحيان.

وقال في نفسه : (مالنا ولجواد شيروم، الذي تجاوزه الزمن ويعيش خارج التاريخ. إن كاساً مع الفتاة وأمها، خير من كل نضالاته وأوهامه)

نهض ياسر ليصافح جوادا ، وبعده بلقاءات أخرى طويلة، إن لم يكن في المطعم، ففي غرفته أو في مقهى وبدوره وقف مزيد وصافح جواداً مودعاً أيضاً.

عندما خرجا من المطعم، أكد مزيد على وجوب لقاء ياسر المدام جورجيت، ليعلم منها حقيقة الفتاة وأمها، ويجلب ما استطاع

من معلومات حولهما، فوعده ياسر بذلك.

وفي الطريق قال ياسر:

ساذهب الآن إلى الشيخ حامد الأغبر في مسجده، لاستلام النقود والحقيبة، وأنت إلى أين ستذهب الآن.

ساذهب إلى فرع حزينا في لبنان، والتقي برئيسه علني أجد وظيفة، أو عملاً، واطلع أيضاً على رأيهم في الانشقاقات التي حصلت

قال ياسر:

تلتقي في المطعم عند الثالثة.

وافترقا كل في اتجاه

وصل ياسر قبيل صلاة الظهر، إلى مسجد التقوى الناس يدخلون زرافات ووحداناً، البعض جاء متوضئاً، والبعض الآخر يقوم بالوضوء، عند صنابير الماء.

وفكر ياسر، وقال في نفسه:

هل أصلي بدون وضوء أم أتوضا ؟)

ثم وجد نفسه عند صنبور الماء، يقوم بالوضوء، وعندما فرغ حمل حذاءه ودخل المسجد، حتى وصل المحراب، لم يكن الشيخ قد حضر بعد، فجلس مستنداً إلى عمود ضخم، مكسو بالرخام

الأبيض عندها شعر بطاقة روحية تغمره وبارتياح لم يكن ليعرف

مصدره أهو الماء يا ترى؟ أم شيء آخر؟

وأقيمت الصلاة، وجاء الشيخ حامد الأغبر ليوم المصلين، كان ياسر وراء مباشرة، لكن الشيخ لم يبصره، أو أنه أبصره فتجاهله، ولم يكترث به، وقام ياسر الخوخة بالركوع والسجود.

وكافة الطقوس مقلداً الآخرين، ربما هذه هي المرة الثانية، أو الثالثة في حياته يصلي، أو يدخل مسجداً. وفكر بالمصلين، الذين يؤمون المسجد في اليوم خمس مرات، ولا يفتر حماسهم

لماذا هم لا يملون ولا يكلون مثله ؟ وقال: في نفسه : (إنه الإيمان، وربما قد تكون العادة، فبعض المصلين لا تردعهم صلاتهم). وخلال الصلاة راودته افكار كثيرة، غابت أفكاره وحلقت. وبقيت حركاته مقلدة للآخرين.

وأنتهت الصلاة، وظل ياسر في مكانه، والعمود خلفه، فاستند إليه متأملاً حركة الشيخ، الذي رآه فانفرجت أساريره واتجه إليه.

قال الشيخ:

تقبل الله صلاتك يا ياسر

سكت ياسر، لأنه لا يعرف في الحقيقة ما يقولونه في مثل هذه المناسبة، رداً على ذلك لكنه أجاب:

شكراً

ثم قال الشيخ:

لقد وصلت الأمانة، ووصلت الحقيبة، أما الأمانة: فهي معي ومد يده إلى عبه، وأخرج صرة ملفوفة وقال: خذ أمأنتك، وأما الحقيبة فهي عند خادم الجامع عند الباب

شكر ياسر الشيخ حامد، وصافحه بحرارة مفتعلة كرد على جميله

فقال الشيخ:

عسى أن نراك في صلوات العصر والمغرب والعشاء، لنجلس بعد أدائها نتسامر ونتعشى نحن أصبحنا مقيمين، وأنت الآن ضيف والهد، وعلينا أداء واجب الضيافة. إن معدتك يا بني طيب نفيس وطويتك سليمة، لقد بدا كل ذلك من النور المشعشع في وجهك

ودع الشيخ، وشكره ثانية، ثم ذهب إلى الباب لاستلام الحقيبة.

استلمها من خادم الجامع وخرج.

وعندها قال في نفسه :

أيظن الشيخ حامد، أنه سينقلني من اليسار إلى اليمين ويضمني إلى حظيرة الإيمان ما أشد اعتداده بنفسه .

إنه يحتاج الآن إلى سيارة أجرة، ففكر بأبي أرز في المرة الأولى صادفه في المكان نفسه لا بد أن مكتب سيارات للأجرة قريب من هنا، ولمح لافتة تشير إلى ذلك، فاتجه نحو مكتب

التكسي، وصار يجر حقيبته، حتى وصل باب المكتب، فلمحه أبو أرز، وخرج من المكتب متجهاً إليه، فتوقف ياسر وسلم مصافحاً.

قال أبو أرز:

أهلاً بأبي رامز أراك هنا، هل تحتاج شيئاً؟

ضحك ياسر، لأن أبا أرز ناداه باسم مستعار كان قد أدلى به إليه في اللقاء الأول.

فقال:

لتنقل هذه الحقيبة إلى البنسيون

من فوره فتح أبو أرز صندوق سيارته، وتناول الحقيبة. وركنها ثم أغلق عليها.

تحركت السيارة باتجاه بيروت الشرقية، وقال: أبو أرز

هل أعجبتك الإقامة عند مدام جورجيت؟

النزل هادئ ومريح، والمدام طيبة، ولكنني أفضل شقة مستقلة.

عندما تريد وتقرر أجهز لك شقة في المكان الذي تريد.

قال ياسر:

في لقائنا الماضي، قلت لي يا أبا أرز أنك تستطيع المساعدة في كل أمر، خاصة إذا وقعنا في مازق، أو ألم بنا موقف صعب.

نعم اذكر ذلك، ومازلت عند وعدي، ولكن هل أنت الآن

في موقف صعب؟

لنفرض أنني الآن في موقف صعب، فماذا تستطيع أنت أن

تفعل لأجلي؟

قال أبو أرز:

عدة أمور. إذا احتجت لهوية مزورة، فأنا جاهز أو جواز سفر باسم مستعار مزور، بل متقن التزوير، فسيكون عندك خلال يومين، أو إذا أردت أن تذهب إلى دمشق، فتبيت ليلة عند أهلك، تدخل سالماً وتخرج سالماً، عبر طرق جبلية، آمنة فانا مستعد.

قال ياسر:

كل هذه الأعمال بمقدورك تنفيذها ؟

وأكثر إذا أردت.

قد احتاج بعض هذه الأمور مستقبلاً.

وصلت السيارة إلى بنسيون المحبة، فتوقف أبو أرز وقال:

سأنزل معك لأسلم على المدام، وأشرب عندها فنجان قهوة.

المعرفة إذن قديمة ووطيدة؟

نعم إنها إنسانة نبيلة، وستكتشف أنت مع الأيام ذلك عندها خبرة واسعة في النفس البشرية، وتفهم السياسة بصفاء لا مثيل له

ودخلا البنسيون، وحمل ياسر حقيبته ومرا من أمام مكتب جورجيت، فسلم ياسر رافعاً يده، وتابع لغرفته، في الوقت الذي دخل فيه، أبو أرز مكتبها.

أدخل ياسر الحقيبة ووضعها على السرير، ثم فتحها وأخرج ما فيها : عدة أطقم العديد من القمصان بعض الأحذية، كرافات والبسة داخلية، الخ وفوق ذلك عثر على صندوقين من الخشب الأنيق بداخلهما حلويات دمشقية مشهورة.

قال في نفسه :

ساهدي مدام جورجيت أحدهما.

أنتهى من إدخال الثياب إلى الخزانة، أصلح هندامه، وحمل صندوق الحلوى، واتجه المكتب جورجيت كان أبو أرز قد غادر ولما قدم لها الهدية فرحت كثيراً وشكرته، ثم دعته للجلوس وطلبت فنجانين من القهوة.

قال لها :

لقد غادر أبو أرز، ولم يمكث إلا قليلاً عندك، غريب هذا الرجل هل هو أهل للثقة، أم هو مخبر علي أن احذره؟

لا ليس مخبراً، وهو أهل للثقة، وبإمكانك أن تسأل عنه الشيخ حامد الأغبر، فسيدلي إليك بالحقيقة.

ثم فتحت علبة الحلويات، وأخرجت قطعتين وضعتهما في صحن من البلور، كان قريباً منها أعطته قطعة، ثم قالت:

سالني أبو أرز عنك (عن أبي رامز) وقال: ما هو اسمك

الحقيقي؟

ماذا قلت له ؟

لم أقل له اسمك الحقيقي، وأجبته بأنك نبيل، وابن نعم

هل تريدني أن أقول له الحقيقة؟

لا داعي لذلك الآن، ربما أخبره بنفسي عن اسمي الحقيقي فيما بعد.

وفطن ياسر بما طلبه مزيد منه.

فسأل المدام عن الفتاة وأمها فقالت:

إنها تدعى جمانة الهبر، من مدينة حلب بسوريا، وأمها التي معها تدعى تغريد، وقد أتيا بيروت، وأقامنا هنا للاشتراك بمسابقة أفضل مطرب ومطربة، تقوم إحدى الفضائيات

اللبنانية بإجرائها ، وإذا ما نجحت وفازت بالمرتبة الأولى، ستصبح نجمة تتوالى عليها العروض من كل صوب، لكن الفضائية المذكورة، تشترط مشاركتها الأرباح مناصفة، وتحتكرها لمدة خمس سنوات وقال:ت جمانة إنه قد عرض عليها مؤخراً، الاشتراك بمسابقة ملكة جمال سوريا ولبنان، وأنها قبلت هذا العرض.

- إذن هي مشروع مغنية، أو غانية.

ضحكت جورجيت وقالت:

لا تقل هذا عن الفتاة ربما تنال لقب الملكة، فجمالها صارخ جارح، وعندها الجميع سيخطب ودها، وستقابل الرؤساء ولكن لماذا تسأل عنها، لملك فتنت بها ؟

لم افتن بها، فتن بها رفيقي مزيد الخشن، ولكن الفتاة، لا تعلم من الأمر شيئاً، لأنه لم يفاتحها إلى الآن.

لماذا لا يفاتحها بالأمر؟

أظن أن ذلك سيتم قريباً، ولكنه طلب مني بعض المعلومات، ليعرف كيف يتصرف.

نظر إلى ساعته وقال:

قد حان وقت الغداء.

ودعها مصافحاً فشدت على يديه، وقالت:

سنتعشى اليوم معاً في غرفتي، ونسهر.

فأجابها بالموافقة.

لما عاد إلى غرفته، وجد مزيد قد عاد للتو.

قال مزيد:

- لمحتك عند المدام، فدخلت الغرفة من الممر الخلفي، ولم أرد قطع حديثكما، هل طرحت معها أسئلة عن الفتاة وأمها ؟

أخبره بما قال:ت جورجيت بأن عليه أن يفاتحها بشكل مباشر

فهما يعيشان حياة متطورة، ولا يشكل عمله إحراجاً لهما، فإما الموافقة أو الرفض.

ثم أردف ياسر قائلاً :

عليك أن تكون هذه المرة ناعماً ، يا مزيد الخشن، وأن تلفت أنتباهها قبل المفاتحة.

ضحكا بعدها قال مزيد:

عد بنا إلى المطعم.

جلسا على الطاولة نفسها، وبقيت طاولة جمانة وأمها فارغة وحضر الطعام، وبدأ الحاضرون يتناولون طعامهم، لكن مزيداً كان منزعجاً.

وقال لياسر:

لقد غابت هي وأمها، ولم تحضرا الغداء فما السبب يا ترى؟

ربما تجري جمانة، تحضير وصلة غناء، أو تتناول طعامها مع أمها، بدعوة من مدير المحطة.

قال مزيد:

بدأت أغار عليها.

فقال ياسر حاسماً النقاش:

دعك من الفتاة وأمها، وأخبرني عما قمت به من عمل

بنيابي، هل قابلت رئيس الحزب؟

قابلته وليتني لم اذهب لعنده بالكاد وبعد جهد جهيد وتحقيق عصير سمحوا لي بمقابلته عندما دخلت مكتبه... كان يجلس خلف طاولة فخمة منفوش الريش متعجرف الملامح

سلمت عليه فلم يرد السلام، بل قال:

قلت:

نعم ماذا تريد ؟

لقد أتيت لبنان مع رفيقي ياسر خوخة، فهل بإمكاننا الانضمام للعمل في فرع حزيكم، وهو فرع من الحزب اليسارى

الراديكالي الأممي.

- لماذا انشققتما عن يونس الخوخة؟

يونس الخوخة هو الذي انشق عن الحزب الأصيل.

إذن أنتما من جناح عبد البر عنيزان.

نعم.

فرعنا في لبنان، يتبع جناح يونس الخوخة، ونعتبر عنيزان

ساقط من الحزب.

خرجت من مكتبه مدحوراً ، لكنه سألني عندما وصلت إلى الباب:

أين تقيمان الآن؟

قال ياسر:

ماذا قلت له؟

قلت له لم ننزل في فندق بعد ، ونبحث عن مأوى.....

حسناً فعلت، يجب أن لا يعلموا بمكان إقامتنا.

أنتهى الغداء، وذهبا للقيلولة، بعد هنيهة نام ياسر، ولكن مزيد الخشن، لم يغمض له جفن، لأنه مازال يفكر بجمانة وأمها، وأين عساها أن تكون الآن، ولم لم تحضر الغداء في النزل؟

(٦)

كأنت تعد لتلك السهرة بلهفة، أم للقاء ابنها وقد عاد بعد غياب، وكان هو ينتظر دعوتها ، ليعرف الغاية والمرام. وفي المساء مر ياسر من أمام غرفة مدام جورجيت، فلوحت له بيدها وكانها تدعوه ليأتي إليها، كان ذلك تأكيداً لسهرة الليلة، فدخل مكتبها الصغير.

كأنت قد وضعت مكياجاً خفيفاً، لكنه مدروس بحرفية، من مزين ماهر. فبدت أصغر من عمرها بسنوات، وكأنت قد ارتدت فستان سهرة أسود، مكشوف الظهر، فبأنت بشرتها البيضاء، تشع تحت المصباح المضاء، بينما كان شعرها اللامع ذو التسريحة الأنيقة الجديدة، يبدو مجدولاً على رأسها كتاج، ليساهم في جعلها تبدو امرأة ناضجة، وكانها في الثلاثين. أجلسته على كرسي، وقال:ت أنتظرك منذ وقت:

اين سنسهر ؟ هل سنسهر في هذا المكتب الضيق؟

تبسمت من قوله ضاحكة وقالت:

بل في شقتي المنعزلة. تعال لأريك، وقادته من باب جانبي

قدلها إلى ممر قصير، أدى بهما إلى موزع واسع، عالي السقف مستطيل الشكل، فانفتح المكان على جناح مستقل، بل عن شقة واسعة، تضم غرفاً أربع، تتوزع على أضلاع ذاك البهو المستطيل.

وفي الجانب الأيمن، ممر يؤدي إلى المطبخ والحمام والمرافق الأخرى شاهد مندهشاً كل ذلك، وأعجب بالحديقة الخلفية والتراس المسقوف الذي يشرف عليها ، ثم قالت:

هل أعجبك بيتي، إنه يكاد يكون مخفياً، ولا أحد يدخله من الخدم، إلا بهيجة التي تقوم على خدمتي.

كنت أظن أن المكتب، هو مقر إقامتك، وربما يؤدي إلى غرفة نوم واحدة.

ضحكت وقالت :

هل يعقل لامرأة مثلي، تملك دارة بأربع عشرة غرفة، وأنام في غرفة صغيرة ومكتب **؟!**

إنني أؤجر عشر غرف، كما تعلم وأنتفع بجناحي الخاص هذا الذي يضم الغرف الأربع والحديقة. ثم قالت:

لتدخل غرفة الطعام، فنسهر فيها ونتعشى.

قادته إلى غرفة واسعة، فيها طاولة سفرة ضخمة مزخرفة ومحفورة الجوانب والقوائم، فيها أفيال وجنود، كان ذلك يجسد إحدى المعارك، وكان حول الطاولة ثمانية كراس محفورة أيضاً،

بينما كان غطاء أنيق فوق بلور الطاولة، توزعت فوقه صحون وكؤوس ولاحظ لوحة زيتية، في صدر الغرفة، هي تكوين الطبيعة صامتة، تضم زجاجة نبيذ مع كأس وتفاحتين، دعته إلى الجلوس على كرسي في صدر الطاولة، بينما جلست قريبة منه، بشكل جانبي بحيث ترصد ملامحه، وفي الوقت نفسه، ليكون اقرب شيء منها.

ودخلت الخادمة بهيجة، فقالت لها المدام

عليك بتهيئة ضيافة غنية، وطعام دسم لضيفنا العزيز.

غابت الخادمة قليلاً، فأتت بزجاجة نبيذ أحمر، وكاسين من الكريستال البوهيمي، وصبت في الكأسين النبيذ حتى المنتصف، ثم عادت لجلب الصحون المليئة بالمقبلات المتنوعة و قدمت مدام جورجيت لياسر كاسه، وبدورها أمسكت بأناقة كاسها وقالت:

لنشرب نخب الأيام السعيدة القادمة.

عادت الخادمة، لتشعل شمعات حمر ثلاث، مثبتة على حامل بلوري أنيق، فلمعت الزهور الصفراء والبيضاء، المستريحة في سبت موضوع على الخوان

قالت جورجيت للخادمة:

- لن أرد على هاتف، ولن استقبل أحداً هذه الليلة. وعليك

التصرف وفق ذلك:

حاضر سيدتي

خرجت الخادمة عند ذلك، قامت مدام جورجيت، فكيست زراً في البوفيه الضخم المثبت في الحائط اليساري من الغرفة والذي يضم تحفاً وبلوريات، فانداحت موسيقى ناعمة، لكنها حزينة قليلا.

قالت له :

- الآن بدأت سهراتنا.

احتار من أين يبدأ الحديث، وقد لاحظ أن جورجيت لاذت بالصمت العميق، مكتفية بالتحديق في وجهه بحنان.

فقال:

إن هذه الدارة كبيرة فخمة ناهضة، أنتم بنيتموها ، أم كأنت لبرجوازي كبير؟

لقد اشتراها المرحوم ميشيل أعني زوجي، منذ حوالي ثلاثة عقود، يوم شاهدتها انبهرت بها ، وأعجبني المكان، اتساع وانفتاح، يشعرك بحرية ملموسة، رغم إحاطتها بالجدران، وبناء متعوب عليه متقن الزخرفة والنحت، لقد كأنت لإقطاعي كبير وسياسي معروف هنا في بيروت، أراد أن يبيع كل شيء ليرحل إلى البرازيل حيث كان له أقارب كثر هناك، يتردد بسفراته كثيراً

إليهم، ويقال: إنه عشق هناك امرأة رائعة الجمال، فانجذب إليها ورحل لبلادها، تاركا السياسة السياسيين لقد كلفتنا هذه الدار الكثير، لكنها تستحق في هذه الدارة عشت أجمل أيام حياتي وانجبت أغلى ولد في الكون، كان يشبهك بدرجة فريدة، كأنك هو.

ثم أطرقت بحزن، وتابعت:

كما انني عشت فيها أيضاً أقسى أيام حياتي وأمرها. تهدج

صوتها ونفرت الدموع من عينيها وأردفت:

في هذه الدارة أيضاً، قتل زوجي ميشيل، وابني الوحيد طوني، وغلبها الانفعال فسكتت.

قال ياسر:

إنها مأساة حقيقية، بل فاجعة، أنا آسف لذلك، من قتلهما؟

عادت قليلاً لهدوئها ، فقالت:

مرت علينا في الحرب الأهلية اللبنانية أهوال، ليس أفظع من اقتتال أبناء البلد الواحد ، لا تعرف عدوك من صديقك، ومن معك ومن ضدك، الطوائف والمذاهب تتصارع، والأحزاب السياسية تنضوي احيانا مع بعض وأحيانا تتقاتل، الاتجاهات المتعارضة تتشظى، لتتغير التحالفات. كنت أنا وزوجي من مؤيدي سوريا الكبرى، والقومية السورية هدفنا ، وقد عملنا ضمن ذلك الحزب كنا علمانيين ونكره الطائفية، وكان زوجي طبيباً يعالج كل جريح مهما كان أنتماؤه، ويوم الفاجعة دخلت دارتنا ميليشيا، قيل

إنها مدعومة بالتسليح والمال من جهات إسرائيلية.

كان طوني وميشيل في الحديقة، تحت شجرة الليمون بتسامران: يعلمه الحياة، ويعطيه التوجهات، ويحضه على الحذر، وكنت أنا في المطبخ أعد الطعام، سمعت أزيز الرصاص، تبعته صرخات، ثم سمعت صوتاً غريباً يقول:

ابحثوا عن المرأة، لنقتلها أيضاً.

فاختبات في أحد الخزن القريبة، فتشوا الدارة فلم يهتدوا المكاني، بعدها خرجوا ، وعندما تأكدت من خلو المكان، خرجت من مخبئي.

وجدتهما في الحديقة، مضرجين بدمائهما. عشرات الرصاصات، اخترقت جسديهما.

أصبت بصدمة، وصرت أصرخ، وحضر بعض الجيران، وأخبروا أهلي، وفقدت أعصابي وعقلي أيضاً، واحتجت إلى إعادة تأهيل في عيادة نفسية، استمر ذلك سنة، وساعدني الدكتور حنا الأخرس في اجتياز المحنة.

- من حنا الأخرس؟

- إنه صديق له فضل كبير علي أشرف على علاجي، وبذل أقصى الجهد، لكنه بعد الحرب لم يعد يطيق العيش هنا، بعدما رأى من الفظائع، فهاجر إلى السويد. كان صديقاً لزوجي، وفي عمره تقريباً، وكأنت بيننا زيارات عائلية.

- هل كان حنا الأخرس أيضاً في الحزب نفسه؟

نعم وقد ناضلنا من خلال الحزب سوية، وقد تعرفت أنا ايضاً بزوجي من خلاله، وكان أبي صموئيل معروفاً بثرائه، فهو من أكبر صاغة بيروت، ولم يكن ينتمي لحزب، ويريدني كذلك، إلا أنتي انخرطت في الحزب السوري، بكل إيمان واقتناع أنت تعرف سوريا الكبرى، التي تضم لبنان وفلسطين والأردن والعراق، إضافة لسوريا الأم شعوب هذه المنطقة من أصل وتكوين واحد، الجماجم والملامح تؤكد وتثبت ذلك، أشار إلى ذلك الزعيم المؤسس في كتابه نشوء الأمم، هذا الشعب متميز عريق، ابتدع الأبجدية، وأقام الممالك على ضفاف المتوسط، هو من اكتشف اللون الأرجواني، ووصل أمريكا قبل كريستوف كولومبس بآلاف السنين، لقد وجدوا في أمريكا آثاراً فينيقية تدل على

ذلك، انجب قادة عسكريين خلدهم التاريخ، لقد التف (هانيبعل) القرطاجي على روما، وأوجد في الفكر العسكري نظرية الحرب الخاطفة والالتفافية، إن هذا الشعب ذكي ومبدع ولقد شبهوه بطائر الفينيق، الذي ينبت من الرماد بعد حرقه ولكن مما يؤسف له أن حزيكم يكرهنا ويحاربنا، مع أننا نحب العدالة والمساواة، وننادي بمثل ما تنادون، من تكافر الفرص وتصفوننا بأننا عملاء الغرب. إن من أعدم الزعيم هو الغرب، فكيف يكون عميلاً، وقد أعدم؟

قال ياسر:

إن نشوء حزيكم، كان صدى للحزب النازي في المانيا ، والفاشي في إيطاليا، نحن نعتقد أن القومية مرحلة عابرة. لا نفيذها لأننا نعتقد أنها سببت حربين عالميتين، بسبب التنافس والصراع، هل استمر وجودك في الحزب طويلا ومازال؟

- نعم استمر ردحاً طويلاً، لا أدري لم استمر وجودي في الحزب، كل تلك المدة الطويلة ؟ هل هو حبي لميشيل، الذي واظب على وجوده فيه أم هو رد فعل على مساوئ الحكومات الطائفية المتعاقبة ؟

دخلت الخادمة، تحمل صنوفاً أخرى من الطعام، وضعتها على الطاولة وانسحبت، فقامت المدام، وملأت القدحين مجدداً بالنبيذ، رفعت كاسها، وتناول هو كاسه، وقال:

نخب صداقتنا القوية التي تتجاوز الاختلاف في الرأي.

ورغم أن ياسر، لا يتعاطى الخمرة، إلا نادراً وفي المناسبات، أو عندما يلح عليه مزيد الخشن بشربها، إلا أنه استطابها في ذلك الجو البهيج، واللقاء الفريد، وانطلق لسانه بالحديث وتشعب فقال:

منذ عام ١٨٦٠ وما قبل، لجأت الدول الكبرى لتغذية الطائفية في لبنان، والنفخ فيها، هم دائماً يبحثون عن نقاط ضعفنا، ليتسربوا منها ، ولا أسهل من استخدام الطائفية والمذهبية، في أوساط جاهلة، ومتى كبر الحريق، صعب إخماده

ينبشون الأحقاد من آلاف السنين، ويتسمون البلد مع، أو ضد من غيبهم التراب، وأصبحوا رفات، وكان الفتن القديمة، انبعثت لتحدث الآن علينا أن نبحث دوما عن المستفيد بكل تأكيد هو العدو الخارجي، الذي اعد الدراسات السيكولوجية، لفهم نفسية المجتمعات والجماهير لتدميرها، يبدو أن مجتمعاتنا ذات ترجيع بعيد ، تحب نبش الماضي، حتى ولو كان مأساويا، أو تجد دوماً من يحضها على ذلك

- هذا صحيح، ولكن لا تنسى دور الأسر الإقطاعية المستفيدة منها في إبقاء زعامتها السياسية والطائفية، ولا تنسى

ايضاً دور إسرائيل في ذلك.

- ربما كأنت نكبة فلسطين، سبباً لكل القلاقل والأنتفاضات والثورات

لو لم تكن مشكلة فلسطين، لخلقوا لنا مشكلة مثلها، أو أدهى وأمر، مشكلة أمريكا والغرب، أنها تكيل بمكيالين. تحارب الإرهاب والأصوليات الإسلامية، وفي الوقت نفسه، تدعم

وترعى الأصولية اليهودية الصهيونية.

وما دولة الكيان في فلسطين؛ إلا شكل من أشكال الأصولية اليهودية، التي تجسدت بدولة. كنا نعيش مع اليهود في أحسن حال، كانوا جيراناً يسكنون لصق بيوتنا ، وكانوا

لنا أصدقاء اليهودي يحب عمله ويتقنه، ومولع بالقرش والصيرفة، لكنهم نفخوا بأذنه بما سمي العودة إلى أرض الميعاد والفردوس المفقود.

ولما هاجر إلى هناك، واغتصب دار الفلسطيني وأرضه وبياراته عاش باسوا مما كان فيه في بلده الأصلي.

المشكلة معقدة فكيف يكون الحل؟

الحل بسيط في رأيي وسهل، لكن الدول الكبرى لا تريد الحل، إنها تسعى جاهدة لكي تظل المنطقة متفجرة، الحل يكون بدولة ديمقراطية علمانية مدنية، يعيش فيها العرب واليهود، متساوين في الحقوق والواجبات، على أن يعود الفلسطينيون المهجرون إلى أرضهم، التي اغتصبت، وأن تزال النزعة العنصرية والأصولية، من طابع الدولة القائمة حالياً. وبهذه الحال يتساوى الجميع، ويتعايشون جيراناً وإخواناً مثل بقية الأديان، وشعوب المنطقة.

ولكن الغرب و أمريكا بالذات، ليس من مصلحتها ذلك، لأنها تريد من هذا الكيان، أن يكون خندقاً متقدماً، أو رأس حربة للسيطرة على شعوب شرق المتوسط في العالم اليوم انحطاط اخلاقي مهين وقطيع، وازدواجية في المعايير، وميكافيلية في السياسة. إنهم يريدون تقسيم المنطقة كلها طائفياً، لتساحر وتكون إسرائيل القوة الكبيرة المهيمنة، والتي يسعى الكل المحالفتها وخطب ودها، لقد عانى اليهود من المحرقة، وبدل أن يقفوا إلى جانب المظلومين، مارسوا الظلم والاضطهاد والعنصرية كما فعل النازيون، وأوجدوا محارق جديدة.

صيت لنفسها كاساً ثالثة، وملأت كاسه التي لم يشرب

منها، إلا قليلا ثم قالت:

حدثني عن نفسك

قال:

كثير من التشابه في حياتي التي عشتها، مع ما عانيت أنت هنا، فأبناء هذه المنطقة مصيرهم واحد ومتشابه، أبي برجوازي وأنا يساري متطرف، تخليت أنا عن طبقتي، وانضممت لحزب يساري راديكالي، وصدمت بانشقاق يونس الخوخة، وركوبه الموجة، ليصبح ابنه أكبر مستورد للموز. لم يكتف بذلك، بل جراخي زهير، إلى لعبة الفساد والاحتكار، مستفيداً من سمعة ابي التجارية ونجاحه. تركت التنظيم بعد الانشقاق، لكنني عدت بعد سنوات إلى الفرع القديم بدون قناعة كبيرة، ولولا الملل وإصرار مزيد الخشن على رجوعي لما رجعت، و هانذا الآن أكابد الغربة بدون طائل، والحزب اليساري هنا ، صار من اتباع وملحقات يونس الخوخة مدعوماً من الأمن السوري، وقوات الردع بلبنان. فحدثت لي صدمة هي بالتأكيد، أقل من الفاجعة التي تعرضت أنت لها. ارايت كم حياتنا متشابهة الغريب أن الأحزاب اليمينية وذات النزوع الديني. قد حدثت فيها انشقاقات كما حدث الحزينا وكان هناك عملاً ممنهجاً من جهة ما، لتفجير الأحزاب التقليدية

لبعثرتها، ومن ثم السيطرة عليها.

ثم قص لها أشياء عن حياته العائلية، وعن أولاده.

قالت ربما سيأتي حين من الدهر على الأحزاب التقليدية، والتي ما نزال إلى الآن موجودة، فيجعلها من التاريخ، كأنت هذه الأحزاب في يوم من الأيام تشكل حاملاً لنضالات وآمال المحرومين تعرف على جراحهم ولكنها لم تحقق لهم شيئا، وتعرف أنت أن تغير الأدوات والوسائل، يرافقه تغير في العلاقات الاجتماعية وفي الأنتاج ايضاً الآن تتشكل علاقات اجتماعية جديدة، لوجود أدوات ووسائل اتصال حديثة ظهرت مؤخراً، مثل الكمبيوتر والموبايل المتطور بطريقة مدهشة، ووسائل التواصل الاجتماعي التي حولت الكون إلى قرية، اعتقد أن هذه التكنولوجيا ستكون الحامل الجديد للتغيير والنهوض الاجتماعي، وسينتهي دور الأحزاب أو يقل، سواء وجدت من يشقها، أو لم تجد، إن أكبر حزب في الإتحاد السوفيتي قد انهار من داخله، بعد أن حكم سبعين سنة. و بانهياره، انهار معه النظام بأكمله، وحدثت كوارث اقتصادية، لشعب امتاز بالطوية الطيبة.

ولكن لابد لأي تجمع من الناس من قيادات وهذه الوسائل التي ذكرتها : (وسائل الاتصال والتكنولوجيا)، ربما تخلق راياً عاماً مفترضاً، ولو كان ملموسا، أو حتى واقعياً. لكن من الصعوبة بمكان أن تخلق هذه الوسائل، قيادات جماهيرية حقة.

القيادات الجماهيرية، تتخلق من خلال بروز الحامل المفترض، ونزوله إلى الشارع ليحقق هدفه، والآمال والأهداف التي

تبلورت من خلال التواصل التكنولوجي، يعني خلق قيادات جديدة بأسلوب غير تقليدي، يتصدى للتغيير، الذي ليس من الضروري أن يكون ثورياً، لكنه سيغير من المفاهيم والعادات والأخلاق أيضا.

إذا قطن الحكام إلى ذلك وقاموا بانجازات أدت إلى تطور الحياة وإلى تغيير، فإنهم يسحبون البساط من تحت أرجل الدعاة الجدد.

و يصبحون هم قادة التغيير على السياسي أن يتمتع بدهاء مدهش وذكاء منقطع النظير، وقبل ذلك كله بالحب حب أهله وشعبه

سكب في جوفه كأس النبيذ دفعة واحدة، وقد شعر بانه قبض على فكرة مفيدة وهامة، جديرة بالنقاش

فقالت له :

لا تنسى إعداد قوتك الذاتية، فالفجر الجديد يحتاج للأفكار والخبراء والممارسين لا تقف في منتصف الطريق، ولا تثق بفأنتازيا العقل المتوهم

لقد تركت الماجستير، مع أنني كنت راغباً في الدراسة. حتى نيل الدكتوراه، ولقد أخذني الزمن والعائلة، والنضال الزائف، فأنسياني إعداد قوتي الذاتية.

قم من الآن بإعدادها والزمن مازال أمامك

دخلت الخادمة وقالت:

هل تريدين شيئاً يا سيدتي، لقد داهمني التماس، فهل

تسمحين لي بالنوم؟

اذهبي ونامي في الغد تنظفين الطاولة، وترتبين الأثاث ربما أكون نائمة.

نظر ياسر في ساعته، كأنت الساعة الثانية بعد منتصف الليل

فقال:

ما أمتع حديثك القد أخذنا الوقت، فلم نشعر بمروره ولابد من الذهاب لغرفتي كي أنام.

لا تذهب إلى غرفتك، بل عندي غرفة وسرير ومنامات نظيفة، فتم هنا في هذا الجناح

لا داعي للإحراج.

ليس هناك من إحراج أنت ابني.

نهض فقادته إلى تلك الغرفة، وقالت:

هذه منامات وشراشف نظيفة، كأنت لابني طوني البسها

وانزلق في فراشك.

غادرت الغرفة، لكنها عادت بعد ربع ساعة من الوقت، قرعت الباب، ودخلت الغرفة. كأنت ترتدي منامتها، وقد تخلت عن حليها، وأسدلت شعرها، وظهر السكر عليها بوضوح.

قالت له :

أشعر الآن، أن ابني طوني ينام في سريره، إنه مثلك تماماً، هذه غرفته، وأنت الآن تلبس منامته

بكت وقالت:

أنت من الآن، ولدي الحبيب، لا تغادرني ودعني أنام بقربك لم ينبس بكلمة، وفوجئ من تصرفها المحزن، لكنه أشفق لحالها، فتقدمت من السرير، واندست تحت اللحاف قربه، وراحت تنشج وتهذي بكلمات لم يتبينها.

كان يتأملها بدهشة وانبهار عقدا لسانه، وعطلا حركته، ثم رأها تغط في نوم عميق مسح لها دموعها، وريت على خدها، ونام بقربها، وقد شعر بحنان قريب من حنان أمه، وقبل أن ينام قال: في نفسه

(ما أعجب الإنسان ! وما أروع الحنان (قلوبنا مصدوعة بقسوة ظلم القريب الجاهل من جهة، وظلم العدو الغادر من جهة أخرى.

استيقظ على صوت حمامة تترغل، فظن أنها تقف على غصن قريب من النافذة، ولمح ضوءاً يدخل من خصاص الشباك، فيبدد غبش الغرفة وينير جزءاً منها. تذكر الليلة الماضية وما جرى فيها، ووجد سريره فارغاً، ولم يجد مدام جورجيت فيه، فقام متثائباً يخلع منامته، ويرتب سريره طوى المنامة ووضعها في الخزانة، أخرج ثيابه، وارتدى قميصه وبنطاله، رتب كل شيء في الغرفة قبل خروجه، وعندما فتح الباب ليستقبل الحديقة، وجدها في التراس المطل على الحديقة تنتظره، كأنت اليمامة ما تزال على

شجرة الليمون، لما رأته يقترب منها طارت غمرت الشمس الحديقة، بأشجارها ومروجها وأعشابها وأزهارها ، بضياء ساطع

فتلالا العشب المندى تحت الشجر.

كأنت المدام تجلس إلى طاولة مع كرسيين، تتأمل شجرة

الليمون، ولما أطل عليها قالت:

انا بأنتظارك لنشرب القهوة معاً.

اقترب منها محيياً بتحية الصباح، وممسكاً بالكرسي الفارغ ساحياً إياه ليجلس أمامها، ضحكت فبان الرضا والسرور والألق على وجهها، رغم أنها أزالت مكياجها ، ورجعت إلى تسريحتها القديمة، فبدت أجمل من الليلة التي تجلت فيها ، كأنت تلبس ثوباً خفيفاً أبيض عاري اليدين، وموشى بزهر فيروزي

ردت التحية بالفرنسية، ولما استوى على كرسيه قالت:

كأنت أجمل ليلة عشتها بحياتي، ولا يمكن وصفها.

انقطع الحديث بمجيء الخادمة، تحمل صينية القهوة، مع ركوة وكأس ماء وصحن من الحلويات قدمت لكل واحد منهما فنجانه، تاركة ركوة القهوة وكأس الماء وصحن الحلو في الصينية على الطاولة.

بعد غياب الخادمة في الداخل قالت:

اعتذر عما بدر مني في الليلة الماضية، إنه لم يكن بفعل الخمرة فحسب، بل وبدافع داخلي عنيف أوحى لي بما أوحى فاعتقدت بأن طوني، قد بعث حياً، ليلبس منامته وينام في سريره.

وتجلى فيك أنت الذي تشبهه لحد المطابقة، وكان لابد لي من أن أرقد إلى جانبك.

- إن ما جرى كان عادياً، ولا يستدعي الاعتذار، فأنا أيضاً اشتقت لأمي وتخيلتها، ترقد في سريري وتمنحني الحنان.

قالت المدام:

الجو هنا جميل، والحديقة الخلفية نظيفة ورائعة، واقترحعليك، أن تأتي بزوجتك وأولادك ليقيموا في هذا الجناح أسبوعاً على الأقل، هم يستجمون وأنت تستانس بهم بعد غياب.

استعذب الفكرة في داخله، ولم يبد كثيراً من الحماس ثم

قال:

إن حضورهم قد يشكل إزعاجاً لك، وأنت بحاجة إلى الهدوء والتأمل.

بالعكس تماماً، إن وجودهم يدعوني للتفاؤل، ولعبهم في هذه الحديقة مدعاة سرور، كما أن لقاءك بزوجتك ضروري الإدامة التواصل.

تشعب الحديث بعد ذلك في مناح شتى، وتذكرا أحاديث الليلة الفائتة.

ثم قال لها :

- ماذا عساي أن أقول لرفيقي مزيداً، إذا سألني أين قضيت

ليلتي الفائتة ؟

استأجرت جناحاً منعزلاً - قل له الحقيقة، بل قل له: إنك استاج

لأنك ستجلب زوجك وأولادك للإقامة فيه.

كافضل نطريقة التسويغ غيابي عن مزيد.

قالت له :

ساستدعي الخادمة لتجهز لنا الفطور.

لا داعي لذلك، فأنا أريد أن أفطر في المطعم العمومي، لأرى ما جرى بين مزيد والفتاة وأمها.

قالت له :

أنت بحقيبتك، وكل حوائجك واتركها هنا، ستتكفل الخادمة بترتيب محتوياتها في الخزانة، ومن الآن وصاعداً، فهذه غرفتك، وأنا سأبقى في غرفتي المقابلة، ولن أزعجك بعد اليوم ابداً.

سافعل مسروراً، إن لم أكن متطفلاً على خلوتك.

بالعكس تماماً سأكون في منتهى السرور.

استأذن بالمغادرة فقالت:

اخرج من هذا الباب الخلفي للحديقة، وسيكون مدخلك الخاص منه مستقبلا، ولا داع لأن تدخل من باب النزل العمومي. وأعطته المفتاح.

غادر من الباب الجديد مجتازاً الحديقة، فوجد نفسه في شارع

يؤدي لما وراء البنسيون اشترى علبة سجائر، ثم التف ليدخل من الباب العمومي، متجهاً لغرفة مزيد الخشن.

كان مزيد قد استيقظ لتوم هو يحلق ذقته الآن، وسيلبس قميصاً انيقاً جديداً، اشتراه ليحضر الفطور في المطعم العمومي لما وصل ياسر إليه حياه بتحية الصباح، فبادره مزيد بالقول دون رد التحية وبلهجة قلقة متوترة.

أين غبت ليلة البارحة ؟

ساقص عليك الأمر فيما بعد، ولكن أخبرني أنت ماذا جرى معك، وهل فاتحت الفتاة برغبتك ؟

لم أفاتحها، لأنها لم تحضر العشاء ولا الغداء.

لعلها كأنت مشغولة بوصلة غنائية، أو مدعوة إلى عشاء رومانسي.

- أكاد أجن، وعليك أن تساعدني في إيجاد وسيلة لفتححوار معهما.

- أزف الآن موعد الإفطار، سنفتح معهما حواراً بعد تناول الفطور.

نهضا واتجها باتجاه المطعم، فوجدا الفتاة وأمها على الطاولة نفسها، بأنتظار ورود الطعام.

قال مزيد:

إن قلبي يخفق بشدة. ساعدني ارجوك.

(٧)

دخلا المطعم كأنت عيون مزيد، كرادار تبحث وتمسحأرجاء المطعم الكبير، فضبط الرادار الهدف الجميل، وفاح في المكان شدا.

كأنت جمانة الهبروامها تغريد تجلسان حول الطاولة نفسها ، ولم يكن الطعام قد وزع على الطاولات بعد. وأصاب الخرس لسان مزيد من شدة انبهاره وإعجابه بطلتها ، ذات البهاء الدافق والجمال الصارخ، وأنتبه ياسر إلى ارتباكه، فأخذ المبادرة موجهاً لهما الكلام

صباح الخير أيها الأعزاء، اعذراني لتطفلي لكن الغيرة على أبناء وطني، أقوى من أي شيء، فبالنا قد انشغل، وأصابنا القلق لغيابكما عن الغداء والعشاء البارحة، ولكوننا أبناء وطن واحد ، تجمعنا أرض الغربة، فمن حقنا أن نحافظ على أبناء بلدنا ، ونسأل عنهم.

نسيت أن أقدم لكما نفسي

أنا ياسر الخوخة من دمشق، وهذا زميلي مزيد الخشن.

مدت الأم ينها، وهي تبتسم التصافحه، وبدورها فعلت الفتاة كذلك، وتقدم مزيد خجلاً مرتبكاً، فصافحهما أيضا.

قالت الأم :

نعم الأبناء أنتماء ليس من الغريب أن يخشى مواطننا علينا ، انا (تفريد الهير)، وهذه ابنتي (جمانة). جئنا من مدينة حلب لإجراء مسابقة فنية تقيمها إحدى الفضائيات

قال مزيد مثبتاً وجوده:

نحن في الحقيقة طالبا ماجستير، وهذا ما يفسر وجودنا هنا في بيروت

انزعج يأسر ضمنياً من معلومة غير حقيقية أبداها مزيد، على الأقل لم تتأكد بعد، ولكنه كتم انزعاجه، وتعجب كيف يؤسس مزيد بداية علاقته على كذبة.

ثم قال في نفسه :

ربما تصح الرواية (دراسة الماجستير)، إذا وأنتنا الظروف وجاءت الفرص.

أعاده من تداعياته قول الأم تغريد :

تفضلاً وتناولاً معنا الفطور.

قال ياسر:

الطاولة صغيرة وبالكاد تسع الثنين، ولكن هل لي بدعوتكما لشرب فنجان قهوة في مقهى (السراب الساحر)

القريب من هنا.

قالت جمانة:

- اعرف المكان.

قالت الأم:

إذن نلتقي في المقهى، في الساعة الحادية عشرة.

تركاهما والتجاا إلى الطاولة القريبة، بأنتظار قدوم الفطور.

كان مزيد في غاية السرور والفرح لدرجة النشوة، وقد شاب سروره ذاك، شيء خفيف من الإحباط، لأنه لم يأخذ زمام المبادرة، وقيادة الحديث الذي نجح فيه ياسر أيما نجاح.

وظل مزيد يلاحق الفتاة بنظرات الحب واللهفة. وقد لاحظت جمانة ذلك، فبرقت عيناها وتعلقت نظراتهما لفترة أطول من المعتاد.

وقال مزيد في نفسه:

هذه أول بشائر المطر.

وخرجت أمها بعد تناولهما فطورهما، محيية بحركة من الرأس

مع ابتسامة، تبعتها جمانة، التي أرسلت إشارات و نظرات، تحمل أكثر من معنى.

انهى ياسر ومزيد فطورهما على فرح غامر، ونهضا سائرين باتجاه غرفتهما.

قال مزيد:

باقي ساعة من الزمن، ساهيئ نفسي للقاء محوري في

حياتي.

قال ياسر:

أما أنا فإني ساعد حقيبتي، لأنقلها إلى الجناح الجديد ومن الليلة ستبقى وحدك في هذه الغرفة فربما أنت زوجتي وولداي، في هذين اليومين القادمين.

قبيل الموعد ا خرجا من البنسيون باتجاه المقهى مزيد يرفرف قلبه كجناحي عصفور، والفرح ممزوج بالخوف، وتخيل نفسه يمشي فوق الماء إلى جزيرة الأحلام، وعندما وصلا المقهى، أنتقى ياسر مكاناً منعزلاً متطرفاً ، طاولة بيضاوية بلون الكيوي.

مقاعدها من جلد أبيض، تحيط المقاعد بالطاولة إحاطة السوار بالمعصم. الساعة الآن الحادية عشرة تماماً، ولما تصل الفتاة وأمها بعد، وتوجس مزيد حيرة وخوفاً وتساءل في نفسه :

هل سيفشل المشروع برمته على أوهى سبب؟

ومضت عشر دقائق عندها دخلنا المقهى بعيون تدور حول الطاولات الموزعة، وأشار لهما ياسر بيده من المكان المنعزل فاتجها إليه، وعند وصولهما قام ياسر ومزيد وصافحاهما، وأشار كل منهما بيده إلى المقعد الجلدي الأبيض نصف الدائري، الذي يحضن الطاولة البيضاوية من جهاتها الثلاث، على شكل نعل فرس، فجلسنا قريبتين منهما. الأم إلى يمين ياسر وجمانة إلى يسار مزيد، وأصبحا محصورين بين البنت وأمها، كان المقعد مريحاً ويصلح للعشاق

قالت الأم :

اعتذر عن التأخير، فقد استغرقت المسافة زمناً أطول مما

قدرنا.

قال ياسر:

لا داعي للاعتذار، المهم أننا التقينا الآن، على طاولة واحدة، أبناء بلد واحد في الغربة. وإن كان لبنان لا يعتبر غربة فقبل فصله كان جزءاً من سوريا، مثله مثل فلسطين وأصقاع أخرى، وعندنا في سورية يقولون : (شعب واحد في بلدين).

قالت الأم :

ربما كان ذلك فيما مضى، لقد تغير لبنان، وتأثر بالغرب. الشكليات هنا أهم من الجوهر، ولكل طائفته، ولكن علينا أن

نتاقلم، فعلى الإنسان أن يسمى وراء مصالحه.

قال مزيد:

إن ياسر بارع ومفرم بإدخال السياسة، والشأن العام في كل مجال، حتى ولو كأنت المناسبة من أخص الخصوصيات

قالت الأم:

هذه حقيقة لا يجوز نسيانها، وعلى العموم كلنا عرب

جاء النادل ليسجل الطلبات، فقال: ياسر

ماذا تحبان أن تتناولا ؟

قالت الأم :

كأسين من عصير الفواكه الطازجة.

قال ياسر:

أنا أطلب فنجان قهوة بدون سكر، وأنت ماذا تريد أن

تشرب يا مزيد

قال مزيد:

انا أيضاً أريد فنجان قهوة بدون سكر.

قالت الفتاة محاولة تغيير مجرى الحديث

لقد لمست جمالاً في بيروت، يرفل بالتحرر والانطلاق، وثمة الكثير من الفرص لذوي المواهب

قال ياسر:

بالمناسبة ما المسابقة الفنية التي ستشتركين بها ؟

قالت جمانة:

في الحقيقة هما اثنتان وليست مسابقة واحدة. الأولى مسابقة

الاختيار أجمل صوت بين المتقدمين والمتقدمات، وتنفذها إحدى المحطات الفضائية في بيروت بينما الثانية هي أنتقاء ملكة جمال سوريا ولبنان، وأنا مشتركة في المسابقتين.

قال مزيد:

لاشك أنك تهوين الغناء، فهل كان ذلك منذ زمن طويل؟

لقد تولعت به منذ صغري، وكان صوتي ومازال ذا طبقة

عالية فريدة، بشهادة أصدقاء أمي وأبي، وكان في بيتنا في حلب بيانو وعود، وكان أبي يتقن العزف على العود، بينما كان أخي مرهف يلعب بمهارة على البيانو يعزفان فأغني، وترسخت من يومها لدي هذه الهواية، وأظن أنها نتاج موهبة.

قال ياسر:

و أين مرهف الآن؟

قالت الأم :

إنه في السويد يعمل في مطعم.

فسألهما مزيد

كم عدد أفراد الأسرة ؟

قالت الأم :

أنا وشكري، رزقنا ولدين فقط مرهف وجمانة، لم يكن شكري يحب كثرة الإنجاب، رغم أننا كنا ميسورين، بل كنا نعيش في بحبوحة.

قال ياسر:

ما عمل السيد شكري؟

موظف في بلدية حلب مراقب بناء الراتب بالكاد يكفي لكن (البراني) كان غزيراً ومجزياً.

قال ياسر:

ما المقصود بـ (البراني)؟

قالت الأم :

المقصود به الإضافات والإكراميات والأعطيات، التي يدفعها المواطن لتسريع عمله تعرفان أن مخالفات البناء في بلادنا كثيرة ومتعددة لدرجة أن قامت أحياء، سميت بالعشوائيات قامت هذه العشوائيات تحت نظر البلديات وسمعها، رغم أن أنظمة

البناء عندنا دقيقة وعسيرة وصعبة، فالذي يريد بناء حائط، أو إغلاق نافذة، أو فتح باب إضافية، أو حتى تحويل غرفة إلى دكان يسترزق منها في زمن صعب عليه استخراج ترخيص، يكلف الشيء الفلاني الرسوم عالية، والضرائب أعلى، والسرطان القاتل هو الروتين المقيت، الذي يضيع الوقت بلا مردود. معظم الموظفين يقولون لك: (تعال بكرا) أي تعال في الغد، تأتي في الغد فتتكرر العبارة (تمال بكرا). يقهم صاحب الحاجة، أن عليه دفع (المعلوم)، وهي إكرامية يلجأ إليها الموظف، لسد عجز الراتب ويلجأ إليها صاحب الحاجة، لتسريع عمله والقفز فوق الرسوم والضرائب الباهظة.

ياتي دور زوجي شكري، الذي يغض النظر عن المخالفة لقاء منفعة، أو يقدر رسوم المخالفة، بأقل من الحقيقة.

قال ياسر:

ما قيمة هذه المنفعة ؟

أقل بكثير من رسوم الترخيص والضريبة، إضافة لتوفير الوقت من عذاب الروتين

ما المردود الشهري لتلك المنافع؟

لا يقل ذلك عن عشرة أضعاف الراتب، وفي بعض الأحيان أكثر بكثير.

إذن توفرت لديكم ثروة طائلة.

- لا لم تتوفر كنا نصرف بدون حساب، بذخ على كافة الأصعدة أنت تعرف أهل حلب، أو تسمع عنهم، يحبون الحياة والصرف، وسهر الليالي في أرقى الأماكن، كنا نجمع مالاً كثيراً، ولكنه يذهب بسهولة، ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة ولا تعلم أين يذهب

هل كان السيد شكري يلعب القمار مثلاً؟

لا بل كان يحب الشراب الجيد والسهر، كان مولعاً بالكونياك الأرمني، وبالطعام الدسم وقد أورثه المشروب داء الفشل الكلوي.

هل مازال السيد شكري على رأس عمله؟

لا، لقد تقاعد منذ أصيب بالفشل الكلوي، وهو يغسل كل ثلاثة أيام مرة، ويحتاج المساعدة في كل شيء.

من يساعده الآن وقد ظل وحيداً؟

أخته العانس تفيدة، تقوم على رعايته وتذهب معه للغسل هي أيضا تعاني من داء السكري، وإذا نجحت ابنتي، في إحدى المسابقتين، وأصبح لدينا مالاً سنزرع له كلية.

قال ياسر:

كم تكلف زراعة الكلية؟

في لبنان تكلف أكثر من مليوني ليرة سورية، لكنهم قال:وا لنا في مصر ارخص.

قال ياسر:

هل هي متوفرة، ومن أين تحصلون عليها ؟

من الفقراء، إنهم يبيعون كلاهم ليعيشوا، وينفقوا على أطفالهم، تصور شخصاً يبيع كليته ليطعم أطفاله.

اعذريني لكثرة الأسئلة، ولكنتي أردت أن يعرف كل منا الآخر بدقة، للساعد بعضنا بعضاً.

قالت الأم:

ها أنتما قد علمتما عنا الكثير، ولم تعلم عنكما إلا القليل، فحدثونا عن أموركما وعن حياتكما.

قال ياسر:

كما قال: لكما صديقي مزيد سابقاً، أتينا بيروت المتابعة دراسة الماجستير، أنا متزوج وعندي ولدان. ولكن مزيد ، ما يزال عزياً، ويبحث عن فتاة الأحلام.

اشرق وجه جمانة بابتسامة دارتها بالقول:

يعني يريدها لبنانية؟

قال مزيد:

لا بل أريدها سورية، وأظن أنني بدأت تلمس الطريق إليها.

انزعج ياسر قليلا من صراحته الفجة فقال:

أحياناً تلعب الصدف، دوراً محورياً في حياتنا.

صادقت الأم على قوله وقالت:

في الخامسة مساء من هذا اليوم، ستجرى بروفات على استعراض المشتركات بمسابقة الجمال، ويحق لأصدقاء المشتركات، أو أقاربهن الحضور، فإذا أحببتما حضور الاستعراض، فسيكون ذلك مدعاة السرورنا، وهاتان بطاقتان تخولانكما، الدخول بدون اعتراض من أحد. وأعطت كل واحد منهما بطاقة.

قال مزيد قبل أن يقرأ البطاقة:

أين مكان الاستعراض؟

في كازينو لبنان.

قال مزيد مغتبطاً :

بكل تأكيد سوف نحضر.

نهضت الأم وابنتها مستأذنتين بالانصراف

وقالت جمانة

اعذراني علي أخذ قسط وفير من الراحة، استعداداً

للاستعراض المسائي.

بعد خروجهما قال مزيد:

إذا لم يكن ثمة مانع، ساستلف منك مبلغاً لشراء طقم جديد، مع قميص وربطة عنق وحذاء، فليس من المعقول أن أدخل الكازينو بهذه الملابس

اعطاء مبلغاً يكفي لشراء هذه الأغراض، وتواعدا على اللقاء في الثالثة في البنسيون ذهب مزيد إلى السوق بينما عاد ياسر عابراً النزل من الباب الخلفي الجديد، فوجد بستانياً، يزرع شتلات الورد في الحديقة، ورأى المدام تجلس في التراس، وراء طاولتها، تراقبه وتشرب العصير تهلل وجهها عندما لمحته، وصار بقربها فحياها ثم قال:

- من الرجل؟

- إنه بستاني يأتي بين الفينة والفينة، لزرع شتلات ورد جديدة، ولترتيب الحديقة، وأنت أين كنت؟

الساحر. ذهبت مع مزيد، والتقينا بجمانة وأمها، في مقهى السراب

هل تم التفاهم وقبلت بالعلاقة؟

ليس بعد لكن هناك بوادر قبول، وقد دعينا لكازينو

لبنان المشاهدة بروفة الاستعراض

برافو، لقد تطورت الأمور بسرعة، أين هو الآن؟

ذهب لشراء البسة تليق بكازينو لبنان

- أين الأفكار اليسارية، التي تخرق المألوف وتتجاوز الاتكيت

تلاشت كالشباب، تحت شمس الواقع.

طلبت من الخادمة بهيجة أن تجلب له كأس عصير طازج قال:

هل تمائمين أن أجلس قليلاً إلى هذا البستاني، فاعرف همومه وافكاره ونظرته للحياة، عندي هواية مستحكمة بدراسة النماذج البشرية، لأن ذلك يعطيني صورة حقيقية عن حياة الناس، وهذا النموذج قلما أصادقه عادة.

قالت:

- ولماذا يكون هناك مانع، اشرب العصير أولاً.

شرب العصير واتجه إلى أقصى الحديقة، حيث كان البستاني، يغرس الشتلات، لما وصل لعنده قال:

يعطيك العافية يا عم

أنتبه البستاني، وكان منهمكاً، بدفن جذور شتلة ورد.

اهلاً يا بني، الله يعافيك.

ولمح ياسر الخادمة، بهيجة فناداها :

- بهيجة، من فضلك إبريقاً من الشاي وكوبين.

وجلس ياسر على العشب أمامه، يتأمل شتلاته وكيف يعمل.

قال الرجل:

اعتقد أن لك اهتماماً أكيداً بالنباتات والزهور.

هو كذلك بالفعل، فكيف استنتجت؟

لا يحتاج الأمر لذكاء كبير من الاهتمام تفهم حقيقة محدثك، لقد اتيت من أقصى الحديقة، لتشاهد شتلات الورد وهي تزرع النباتات مخلوقات حية تتحرك، إنها مثل بقية المخلوقات ولكنها بطيئة الحركة، إنها تشعر بك إذا اقتربت منها مهتما، أو معجبا، فترفع أوراقها وزهورها، منتشية ببطء لا يلاحظ، اكتشفوا ذلك بالتصوير الالكتروني الدقيق مرة قال: لي أحد

علماء النبات، وكنت أنسق له حديقته

اتعلم يا صابر، أن النبات يعطينا طاقة، إذا نحن اعتنينا به بسقاية أو تسميد أو تقليم. يؤثر فينا ويتأثر بنا، إنه كالبشر، ولكن حتى يزدهر عليك الا تضع جذوره بين الصخور، هل سمعت؟ لا تضع جذوره بين الصخور، مع أننا يا بني، قد عشنا نحن كبشر جذورنا بين الصخور، وعشنا نعاني لكننا مازلنا صامدين كأشجار التين الجبلي، التي تثبت بين الصخور وتعطي حلاوة وجمالاً، يبدو لي أن الطيور أشد حساسية من الإنسان في هذا المجال، تهبط لتستريح على الأشجار، وبين النبات تشحن طاقتها، تفرح بالنبات ويفرح بها ، أتعرف أن بعض الطيور كالهدهد مثلاً ، يرى الماء في باطن الأرض، وهو محلق في السماء وعندما يتعب، يهبط إلى الشجر ليستريح ونحن البشر أيضاً، تبهجنا الحدائق والجنائن، ولكن ليس بتلك الدرجة.

قال ياسر:

أراك تعمل بحرفية عالية وثقافة نباتية واسعة. أظن أنك

رجل خبر الحياة

قال الزارع:

لقد تقلبت في مهن عديدة، لم أرتح كثيراً ، لها واستقربي المقام، عامل حدائق وبستاني جنائن لأنها لاقت نفسي منها ارتباحاً، إذا لم تحب مهنتك لا تبدع فيها؛ إضافة إلى أن بقية

المهن، تحتاج مالاً وقاعدة مادية، مثل فتح دكان أو مركز. هل عندك أسرة كبيرة، وهل يساعدك أحد من أولادك على تدبير شؤون الحياة؟

عندي أربعة أولاد : ثلاثة شباب وصبية، اثنان من الشباب في كلية الطب عامان ويتخرجا والشاب الثالث في سنته الثانية بكلية الصيدلة، أما الابنة الصبية، فهي في السنة الأولى بكلية الهندسة المدنية.

- هل أنت وحدك من يصرف على كل هؤلاء؟

نعم وحدي وامراتي غير موظفة، لكن البركة في البيت

وجودة بوجود المحبة، وإذا كنت إداريا ممتازاً سوف تحقق كثير، لا نصرف ليرة إلا في مكانها الذي يجب أن تصرف فيه، نعرف معنى التبذير، كما لا نعرف معنى البخل والتقتير، إننا يعاً سعداء، والمحبة تغمر بيتنا كله.

ازداد ياسر إعجاباً بالرجل وسأله:

لملك تجاوزت الخمسين من العمر؟

قال ضاحكاً:

بل تجاوزت الستين.

لم يترك الزمن كبير أثر عليك.

الرضا، إذا كنت راضيا عن نفسك، وضميرك مرتاحويقظ، ستكون متصالحا مع نفسك، ولن ينال منك الزمن قبل الأوان.

كأنت الخادمة بهيجة، قد أنت في هذه اللحظة بإبريق الشاي فتناوله ياسر منها، وصب كوبين، ناول الرجل كوبه، ثم قال:

تحادثا كثيراً، ولكننا لم نتعارف، أنا ياسر الخوخة من سوريا.

قال البستاني:

أنا صابر البداوي من ضواحي بيروت، وأسكن فيها.

قال ياسر:

هل أنتميت يوماً إلى حزب سياسي، أو آمنت بفكرة؟

لا لم أدخل حزباً في حياتي، لأن الحياة قد شغلتني كلية ،

عن أي عمل مضاف، أنام من اليوم ساعات ست أوسبع، وبقية الساعات، عمل متواصل ولكنني أتابع المجريات ويمدني أولادي

بالمعلومات أما الفكرة التي آمنت بها، فهي مقولة إن العمل هو خير عبادة، وإن على الإنسان أن يعيش المحبة في كل مفاصل حياته.

قال ياسر:

- إذا خيروك بالأنتماء لحزب، وتوفر لديك الوقت، فإلى أي

حزب تنتمي ؟

- لا أنتمي لأي حزب موجود حالياً.

- لماذا ؟

لأن معظم الأحزاب هنا قائم على الطائفية، أو الفئوية حتى ولو كأنت علمانية أحيانا، أو تدعي العلمانية، أيام الأنتخابات، يهبطون من برجهم العاجي، ويتجولون بيننا، فيعدوننا بالكثير، وعندما تنتهي الأنتخابات يصعدون إلى عروشهم وصوامعهم ويبقى كل شيء مكانه، عندنا تلعب الطائفية دوراً في توزيع المنافع والوظائف

والمصالح، أنا مسلم وزوجتي مسيحية، لم تفرق الأديان بيننا البشر فرقوا ، والرب جمع، أحيانا أذهب مع زوجتي، إلى القداس في يوم الأحد، وتصوم معي رمضان، ليس لنا سند سوى عملنا ومستقبل أولادنا.

تعجب ياسر من قوله ! فقال له :

كيف تعرفت على زوجتك المسيحية، وكيف أحببتها ؟

تلك قصة طويلة، سأختصرها لك:

كنت أنسق حديقة بيتهم، في بيروت الشرقية، وكنت في مطلع

شبابي نضراً وسيماً، وظهرت هي امامي تطلب مساعدتي في إصلاح نبتتها المريضة الموجودة في أصيص تحمله، تحادثنا طويلا فية النبات والأزهار، وكل شأن من شؤون الحياة، وتوالت اللقاءات وكثر الحديث، وسبحان مؤلف القلوب، وقد سمعت أحدهم يوماً يقول: (الأرواح جنود مجندة ما تقارب منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف)، ويبدو أن روحينا التلفتا، وصار النصيبه في البدء أهلها عارضوا ، وتزوجتها برضاها فقط، ومع الأيام تمت المصالحة مع الأهل.

تقول: إن الطائفية في لبنان مستحكمة، فكيف يتزوج مسلم من مسيحية.

الطائفية السياسية هي المستحكمة، أما أبناء الأديان والمذاهب، فمتحأبون ومتألفون، يتزاورون ويسهرون مع بعضهم أعرف كثيرين تزوجوا أو تزوجن من دين مختلف، أو مذهب مختلف

قال ياسر:

هل من حكمة أخذتها من الحياة العريضة، التي عشتها؟

تأمل قليلاً، ثم قال:

الحياة حيات، بل ربما مليئة بالعقارب، تأتيك من حيث لا تتوقع، قد تأتي من أقرب الناس إليك، ولكن علينا أن لا نياس وأن نتمسك بالأمل ونصارع الصخور التي تعترض جذورنا والجذر الحي على طراوته، يشق الصخر ويصل للتراب.

هل لمست تطوراً هنا، أعني في لبنان، أو في بيروت على الأقل.

اجابه إجابة لم يتوقعها.

تطورنا كي لا تتطور !

ولما سأله عن معنى ذلك، قال:

التطور لا يعني مجاراة الغرب في اللباس والعادات *

العربي أو السهر التطور الحقيقي : هو توزيع الامتيازات والمناصب والمصالح والوظائف على جميع الناس بالتساوي دون استثناء أو محسوبية أو استنساب على الجميع أن يكون تحت سقف القانون، وأن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب، بكناته وعلمه وقدراته وإبداعاته، لا أن يكون المقياس هو الطائفة أو المذهب

اعجب بافكار رجل ما تزال أصابعه مضمخة بعناصر الأرض والورد، ومعاشرة النبات والزهر

قال ياسر في نفسه :

ما أروع حكمة الأرض الطاهرة !

عندما قام ليودعه، قال:

إنك يا عم صابر، قد قمت بأعظم النضالات التي يمكن أن يقوم بها مناضل، وأكبر الإنجازات التي يمكن أن ينجزها مجاهد، لأنك ستقدم لبلدك ثلاثة أطباء ومهندسة، تعلموا كلهم بمال حلال، ومن عرق الجبين، وكانوا نتاج محبة صادقة، أعتقد أن كل واحد منهم إنسانا كاملا، لأن الولد الكامل، هو ابن

الحب الكامل، ولو لم تحبك زوجك حبا كاملاً، لما ضحت

ملتزمة بك إلى أبد الآبدين أنتم وأمثالكم ملح الأرض .

ذهب لغرفته متعباً، واستلقى على سريره ليستريح. كأنت المدام في مكتبها، ومازال صابر البداوي، يزرع الشتلات والأمل. أما هو فقد غرق في افكاره، يتقلب متعجباً تعباً، لأنه لم يفهم الحياة كما فهمها هذا البستاني البسيط الرائع. لقد فهم الحياة فأثمر فهمه، أما هو فقد أغواه سراب، فضل سعيه أخيراً نام من تعب التفكير.

استيقظ في الثالثة لابد أن مزيد الخشن يبحث عنه، وقد استعد بكامل قيافته للذهاب إلى كازينو لبنان، أما هو فقد قرر أن يلبس سترة الخاكي القديمة، فوق بنطال الجينز، الذي جلس به على العشب رمزاً معنوياً للتحدي والاحتجاج، ثم لإعطاء مزيد الخشن درساً في السلوك المنسجم مع العقيدة.

ولما التقيا في المطعم، لمح الأناقة المفرطة في لباس مزيد الجديد

الذي بادره بالقول:

لماذا لم تلبس أفخر ما عندك من ثياب؟ !

ولماذا البس أفخر الثياب؟ !

قال مزيد :

أمرك عجيب، نحن ذاهبون إلى أرقى المجتمعات، وعلينا أن

نجاري الآخرين في عاداتهم ولباسهم.

وأين قيمك وعقيدتك التي ناضلت من أجلها؟ أنت ذاهب إلى بيئة برجوازية كنت تكرهها، ولقد ناضلت فيما مضى من أجل دحرها، وها أنت الآن تلبس اللباس الذي تتميز به هذه ازدواجية.

الا يقولون: علينا أن نلبس لكل حالة لبوس)، كل بسرعة واترك سفسطائيتك لنفسك، وتعال لنتهيا للذهاب أنت حر بلباسك وأفكارك

ووصلا الكازينو في الوقت المحدد، فاستوقفهما موظف الاستعلامات مخاطباً ياسر:

اليوم ليس موعد الحفلة التنكرية.

فقهم مزيد من قوله وملاحظته التي انصبت على لباس رفيقه

فقال:

التبس الأمر على زميلي، فظن أن اليوم هو موعد الحفلة التنكرية، وليس لدينا الوقت الكافي ليغير لباسه.

قال الموظف:

اللباس هنا هو اللباس الرسمي، الذي تعهدونه ولا يجوز تغييره، إلا في الحفلات التنكرية، ومادام الأمر قد التبس على زميلك، فسادعه يدخل هذه المرة.

ابتسم ياسر للتسويغ والمجادلة التافهة، وقال: في نفسه: (ضعف الطالب والمطلوب)، ودخلا الجناح المخصص للزوار، منتظرين بدء الاستعراض دقائق قليلة وأعلن الميكروفون بدء الاستعراض.

خرجت عشرات الفتيات، بلباس يشبه لباس راقصات الباليه وتوزعن بتشكيلة هندسية جميلة، وحملق مزيد في الفتيات، عله يرصد موقع جمانة بينهن، أخيراً لمحها في الصف الأمامي القريب جميلة متألقة، وقد زادها اللباس الوردي القصير، فتنة وسحراً فتأمل ساقيها الممشوقتين، واعترته هبة ساخنة.

واستهجن ياسر اللباس الفاضح للراقصات اللاتي مضين في الرقص مع الموسيقى، لأنه لم يلمس فناً حقيقياً، بل شاهد عرياً وتهتكاً، والعري لذاته ليس فناً. وأنتهت الوصلة الأولى، بريع ساعة، خرجن بعدها من المسرح، وعلق معلق بأن الوصلة القادمة

مفاجأة جريئة.

المتسابقات بلباس البحر الشفاف المؤلف من قطعتين فقط والمايوهات بلون واحد الأخضر الفسفوري، وصدحت الموسيقى من جديد صاخبة فرحة، وتدفق موج الحسان، بذلك اللباس الجريء. إنه ورقة التوت التي لم يون بعد أوان سقوطها، وعلت القاعة بالتصفيق للجرأة النادرة التي أنجزت ثم قمن بتادية رقصة خاصة، أقرب للحركات الرياضية منها للرقص أجساد جميلة رائعة متكاملة، منحوتة بدقة متناهية، فانبهر الحضور، ومد الجمهور رقبته للأمام، ليكون أقرب ما يمكن من الجمال المتجلي، المنبثق كالأقمار على الأنهار.

غاب ياسر منفصلا عن واقعه وأوغل خياله في الزمان الغابر المنصرم، فظهر أمامه سوق الجواري، ربما في بغداد أو سمرقند لكنه لم يعرف في أي عهد أهو العهد الأموى أم العباسي أو المملوكي أم السلجوقي؟ المهم أن الناس متجمهرون يتفرجون: بعضهم يريد الشراء، وبعضهم الآخر يتملى من الحسن بالنظر.

صاح النخاس

هذه الجارية الفاتنة ياسمين، أرق من النسيم وأروع من الشتاء بثلاثمئة دينار فقط من يشتري؟

صار بعض الناس يتكلمون فيما بينهم، عن الجمال وعن

السعر بعضهم قال:

الثمن غال :

بعضهم الآخر قال:

جمالها فاتن يستحق المبلغ وأكثر.

وظهر علج بأرز البطن، قاسي الملامح، يرتدي منزراً حريرياً وصل البازار لتوه، فتأمل الجارية وقال:

اشتريتها بالثلاثمئة. نقد النخاس المبلغ، وسحب الجارية من

يدها، كأنه يسحب خروفاً من رسنه، وقال: لها :

- استعدي يا حلوة لليلة حمراء لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

وغابا عن الأنظار.

النخاس نشط حرك، أخرج جارية أخرى بثوب هفهاف ونادي

هذه الجارية الفائقة الجمال، تصلح للسادة والمتنفذين بألف

دينار فقط (من يشتري؟

لم يتقدم أحد، لكن الجمهرة في السوق، زادت واحتشد جمع غفير.

وجاء من أقصى المدينة موكب الوالي، ولمحه النخاس، ففرك يديه فرحاً، وأنتظر وصوله.

وعندما وصل صاح منار.

- مولانا الوالي.

ترجل برميل يستر جسمه بالدمقس، كان رأسه كالكرنب المتعرج التضاريس ملامحه ملامح ضبع يتطاير من عينيه بريق عيون اللصوص.

صاح بالنخاس قائلاً :

الا يوجد عندك يا هذا ، جوار أكثر جمالاً وأشد نعومة ورخاصة.

قال النخاس:

عندي يا مولاي جوار فائقات الجمال، لكنهن غاليات الثمن وأشار إلى ستارة مواربة، فخرجت شهرزاد وشهناز و جلنار فانبهر الوالي لأن أنوارهن غطت على الشمس.

فقال للمرافق:

- ادفع له ثمن كل الجواري، والحقهن بمخدع الحريم في قصرنا ، وضم ثمنهن على الفاتورة لتخصم من بيت المال.

استيقظ ياسر من الحلم، عائدا لواقعه على صوت الميكروفون

يقول:

الآن فقرة أخذ المقاييس، وإعطاء العلامات.

وضحت الموسيقى، وبدأ التصفيق.

ثم خرج من وراء الكواليس شابان، بيد أحدهما أداة قياس كتانية (مازورة)، وبيد الثاني دفتر وقلم.

ونادي الميكروفون

- المشتركة فلانة الفلانية، فرفعت يدها وقفزت وهي تغنج فرحة، وتقدمت للقياس، فاستوت أمام الشاب المكلف. احاط مقياس الكتان بصدرها حتى ظهرها ، لكن أداة القياس ما لبثت أن انحدرت للأسفل قليلاً، فرفع الرجل المقياس، وثبته على بروز الصدر عند الحلمة، وشده قليلا للخلف فثبت تحسس بيده الصدر والظهر، ثم قال:

سجل ٧٥

وصفق الحضور بفرح كالببغاوات، حين البصر علفها وقد اناها، وسمع ياسر صراخا من الحضور منقطع النظين كان معجزة اجترحت لم ينته القياس بعد، فأنتقل الفالس إلى العجل ولف الشريط الكتاني حوله، محيطاً بالمقدمة والمؤخرة، وبعد تمحيص وتركيز ولس وتمسيد، ثبت الشريط على أعلى قمة في العجز، فصاح الرجل

سجل ٩٠

فصفق الحضور ونادوا : (واو)

ثم أنتقل القياس للأفخاذ، والفتيات في ضحك وسرور وانشراح

وأنتظر مزيد الخشن دور جمانة الهبرية القياس، بفارغ الصبر حان دورها بعد دقائق، ونوديت باسمها، فحضرت إلى مكان القياس، وهي فرحة تقول:

هاي !

وتلمس الرجل القائس رقبتها، ثم صدرها، ووجده رياناً قلف الكنان حوله، وهز رأسه إعجاباً وقال:

سجل ٨٠

فضجت القاعة بالتصفيق، وقام بعض الحضور واقفاً، ومعرباً عن إعجاب نادر، وتعالت الهتافات ثم نزل القائس إلى عجزها ، والتف الشريط حوله، فغرق مزيد في ذهول وغيرة ونشوة، وقال: الرجل:

سجل ٨٧

فصفق الجمهور تصفيقاً أقوى من المرة الأولى، وعلت الهتافات، وكان نصراً قد أنجز، وغرق مزيد الخشن في ذهول ممزوج بحيرة وقلق، لا يمكن وصفه، لكن ياسر أعاده للوعي قائلاً:

إنهم يقيسون مفاتن محبوبتك المصون، زوجة المستقبل، وقد جاءت المقاييس وفق المواصفات فتهانينا يا سيد الرجال امتعض مزيد، وداري خجلاً دب في عروقه فقال:

اتخيلك أحيانا الشيخ حامد الأغبر نفسه، هذه هي الحضارة يا متخلف، لمس الرجل صدرها وعجزها ا نعم، لم ينقص منهما شيء، وتحسس أماكن أخرى أكثر أهمية ! نعم، لكن مم الخوف والتشنج والاعتراض؟ ماذا جرى ؟ هل أكل منها شيئا؟ أو خربت الدنيا ؟

ضحك ياسر مستهزئا وقال:

المشكلة أن شكري الهبر، يحتاج الآن لمن يغسل له الكلية، إنه في غاية الألم، وأخته تفيدة ضعيفة خاوية، وقد أنهكها السكري، والأم وابنتها في غاية السرور والانشراح، الناس

عنا أيضا في سرور، ينتهكون عرض ابنته تحت سقف القانون

وبرضاها، والأم تصفق، فأي خيانة اقترفت؟

تفيدة تقوم بالمهمة وتخفف عنه، والأم وابنتها يبنون

مشروعهما الحضاري.

اهكذا غدت الحضارة، وهكذا تطورت؟ لا تثور النخوة والشهامة فينا، ولو أكلت الأنثى أمام أعيننا أو أنتهك عرضها ؟ !

الم تبشر نحن بكنس النفايات، وتنظيف البشر من هذه القذارات؟ إن هذه مفرزات الرأسمالية المتوحشة، التي شيئت المرأة وحولتها سلعة باسم الحضارة والتحرر، إنه

النكوص إلى سوق الجواري يا سيد مزيد كنت اتخيل قبل قليل النخاس، وهو يعرض الجواري محدداً

ممن كل واحدة، وجاء الوالي ليستولي عليهن جميعاً، فيشتريهن بمال الخزينة، ويمارس معهن العهر والفحش، والآن حلت لجنة الفحص محل الوالي ؛ فاهنا أيها العاشق المتيم.

قال مزيد هازلاً :

أجدادك أكلوا الدجاجة بريشها، وها نحن نشويها

ونبهرها، ونتناولها بالشوكة والسكين، فلا جديد تحت الشمس.

ماذا حققت من كل نضالاتك؟

على الأقل أحاول من أجل تغيير الأفكار؟ وتطهير العقول

والأجساد؟

كل يناضل على هواه، وعلى قدر مستواه

وقطع حوارهما الميكروفون ليقول:

والآن وقبل إعلان النتائج، ستستمتعون برقصة ثوب البحر.

صدحت الموسيقى، وبدأت الجميلات بالتمايل ذات اليمين وذات الشمال، تارة بضم الأذرع وتارة بفتحها، بعد ذلك استلقين على ظهورهن ورفعن أرجلهن، ثم فتحنها ثم ضممنها ، وعدن بعد ذلك للنهوض وإعادة الرقص.

أنتهى الاستعراض، وقال: مزيد لياسر

سأنتظر فتاتي وأمها ، فاذهب أنت أنى شئت. اليوم تعلن نتائج مسابقة أحسن مغنية حضوراً وأفضلها أداء، سابقى معهما.

قال ياسر:

قم أيها الشهم معي، بعد قليل ستجري خلف الكواليس أمور لا يطلعونك عليها ، ويجدر بك ألا تشاهدها، سيكون هناك قياس من نوع آخر، بعيداً عن الكاميرات والأضواء، أتظن أن فتاة تفوز باللقب، دون أن تقدم جسدها قرباناً، أو جائزتها هدية إلى حضن اللجنة الفاحصة، وحضن من رعى المسابقة، وحضن المسؤول الأعلى عن كل هذه الخزعبلات؟

لكن هكذا مسابقات تنشط السياحة.

لعلك نسيت ما آمنت به يوماً من أن العمل هو خالق الثروة وشتان بين السياحة والسقوط الأخلاقي المروع، حتى السياحة

نفسها أصبحت علماً وصناعة، وشتان بين العهر والسياحة

اصر مزيد على البقاء، فاضطر ياسر إلى الخروج وحيداً، وقد شعر بخواء روحي، وتقزز كاد يودي به إلى الغثيان من التفاهات والنفاق الاجتماعي واختلاط الأمور.

في هذه اللحظات، كان شكري الهبر في حلب، يعاني من آلام مبرحة، لأنه لم يستطع غسل كليته فاخته تفيدة، كأنت في غيبوبة إثر ارتفاع مفاجئ لسكر الدم الذي تعاني منه. لقد دنت المنية وسيموتان وحيدين.

(٧)

استيقظ ياسر في الصباح على صوت اليمام، فوق شجرة الليمون، ونقرات العصافير على الشباك، فشعر بدفقة موجة من النشاط تغسل روحه، وتذكر الليلة السابقة، فتألم قليلاً، لكنه نهض مسرعاً، ليرتدي قميصه وبنطاله، وقد وعدته زوجته بالمجيء من سوريا إلى لبنان في هذا اليوم.

ولما أصبح بهندام لائق، ووعي كامل، فتح الباب وخرج الاستقبال النور في الحديقة. فطار الحمام من شجرة الليمون إلى فضاء واسع، وأنتقلت العصافير لشجرة سنسرخت في أول إزهارها.

ولم يكد يجلس على الكرسي مستمتعاً برومانسية سحرية لا حدود لها، حتى جاءه صوت مدام جورجيت

صباح الخير يا بني

فرد التحية مبتسماً، وقد لاحظت فرحاً وألقاً باديان على محياه، ففرحت بدورها. ودعاها للجلوس.

كأنت أزهار البنفسج تضوع بالشذا، وتغمر المكان برائحة

السحر وأنتبه إلى شتلات الورود التي زرعها صابر أمس، فراه ترفع الرأس للضياء، بينما تخيل جذورها تفور في الأرض التماساً للحياة وما لبثت الخادمة بهيجة، أن أنت تحمل القهوة والفاكهة

والماء

قالت المدام:

لملك تأخرت قليلاً في سهرتك البارحة !

نعم وقد وجدت الأنوار في غرفتك مطفأة، فعرفت أنك نائمة.

كيف كأنت السهرة حدثني عنها ؟

لقد سر بها مزيد وتابعها للنهاية، وانزعجت أنا من هؤلاء القوم لأنهم مثل نبات اللبلاب، يعيشون على نسخ الآخرين فانسحبت هائماً في المدينة متأملا حياتي الماضية وما آلت إليه. إنني

أضيع وقتي هنا، ولابد من حل والتماس هدف جديد

الم تخبر زوجتك بضرورة حضورها مع الأولاد العندك

أخبرتها من يومين، والمفروض أنها قد غادرت دمشق الآن

وربما تصل ظهراً.

هل تعرف العنوان؟

أعطيتها عنوان البنسيون، ورقم الشيخ حامد الأغبر وعنوانه

أراك قد فقدت الحماس، واعتراك قلق وهم.

الناس من حولي يتغيرون، وأنا في حالة عطالة وحيرة

هكذا الحياة ركود لم نشاط أنتاج تليه راحة.

ليس الأمر هكذا، اعتقد اننى بدات بداية خاطئة، ولم

اعرف اختيار الهدف أو تدقيق أرضية العمل فقد كنت طيب اكثر من اللازم، لقد كنت مدماكاً في بناء الآخرين المتسلقين.

- الناس يتغيرون وينحرفون ويدورون الزوايا وانا ما ازال سادرا في نفس الطريق. لقد تذكرت الآن شعراً قال:ه أحدهم وقد نسيت اسمه، لكنني تذكرت قوله يقول:

(قف، لم يعد سواك في نهاية الطريق قف. وكل الذي رأيته في دار وانعطف)

لقد انعطف يونس الخوخة، أصبح ثرياً وخان، والعطف الأردغلي زعيم حامد الأغبر، ولمعت أمامه شهوة المنصب، فسلم إخوته للمقصلة، وفاز بمديرية الأوقاف، أو دار الإفتاء، والآن يترشح للسقوط مزيد الخشن امام امرأة أقل ما يقال: فيها أنها غير مسؤولة، ولا تعرف الوفاء، إن مزيد فراشة حول ضوء حارق اما الحلاق الناصري الذي مازال يقيم في البنسيون هنا، فقد استطه

الزمن لأنتهاء مفاعيله، وخروجه عن المدار.

قالت مدام جورجيت

ما يهمك أنت وهؤلاء، لكل حياته وهدفه، لا ينكر تغير

الأهداف، إذا أثبتت الحقائق الموضوعية ضرورة تغييرها، والاعتقاد الذي يجافي العقل والعلم جرف هار، يودي بصاحبه إلى الهاوية

في الحقيقة أبحث أيضاً عن تدوير الزاوية، ليس باتجاه

المصلحة أو المنصب أو الحياة الرغيدة، ولكن باتجاه الاعتقاد الحق المبني على رؤية موضوعية وإيمان.

شرب قهوته ونهض مستأذناً، قالت:

- تناول معي الفطور.

بل ساتناوله في المطعم العمومي، علي أجد مزيد والفتاة وأمها، لأنهم آثروا البقاء لمعرفة نتيجة مسابقة أفضل مغنية وخرج.

كأنت الساعة التاسعة، وقت توزيع الفطور، وغالباً ما يتواجد النزلاء قبل ذلك بقليل. نظر فلم يجد مزيد ولا الفتاة وأمها، فجلس على الطاولة وحيداً. وفي هذه الأثناء دخل الحلاق الناصري، جواد شيروم المطعم، ولمح ياسر فألقى عليه تحية الصباح، عندها دعاه ياسر إلى تناول الفطور على طاولته، فجلس جواد قبالته، وقال:

وعدتني بزيارة ولم نلتق.

شاءت الصدف أن نلتقي الآن على الفطور، وسنشرب بعده

فنجان قهوة.

وأحضر النادل الفطور، وبدأ بتناول الطعام.

بعد هنيهة قال: ياسر:

كيف حال صالون الحلاقة، ومن يداوم فيه عندما تغيب؟

عندي حلاق بيروتي، فنان يجيد الحلاقة والتزيين أكثر

مني، أتركه غالباً لأستمتع بوقتي.

ماذا تعمل بالوقت المتبقي؟

اقرأ الكتب والتقي بالأصدقاء.

ممتاز الثقافة فعل تراكمي، يتوجب تنميته كل يوم

لكن الثقافة في هذه الأيام، لا تسمن ولا تغني من جوع

- لا ليس الأمر كذلك، إنها قوة مضمرة، وعلى كل ليس

بالخبز وحده يحيا الإنسان.

وأنتهيا من الطعام، ونظف النادل سطح الطاولة، فطلب ياسر

فنجانين من القهوة

وتطرقا إلى الحقبة الناصرية، فقال: ياسر:

لقد كان ناصر قائداً جماهيرياً، يموزه المنهج، ولم يطلق للشعب حرية كاملة، وهو أول من بذر بذور الدولة الأمنية، في

هذه المنطقة.

لا إنه صاحب المنهج والقرار وإضافة إلى الجماهيرية، يتميز

بصفات عظيمة أخرى، ربما لم توجد في زعيم قبله، وسيمر وقت طويل قبل أن تنجب الأجيال مثله، أما بالنسبة للمنهج، فلا توجد دولة في العالم بدون منهج، والحرية التي تتحدث عنها هي حرية مطاطة ونسبية، هل كأنت في الاتحاد السوفيتي حرية؟ بل هل في أمريكا نفسها اليوم حرية؟ من يصنع الرؤساء، ويمول الحملات الأنتخابية؟ اليست الشركات العملاقة، التي هي أقوى من الدولة نفسها؟ إن عبد الناصر قد ربط الحرية برغيف الخبز، إذ أن

الجامع لا يفرح بحرية الكلام، ونقد الحكام بل يفرح بتأمين مستقبل أبنائه

- نحن أمة تبالغ في تمجيد زعمائها، لم يكن للرجل ايديولوجية شاملة تقوده، كأنت عنده منطلقات وشعارات، فكان يتعلم عن طريق التجربة والخطأ، وبهذا الأسلوب تضحية بأجيال ووقوع بمأزق

الرئيس أي رئيس، لا يملك طاقة الأنبياء الأنبياء أنفسهم

يخطئون ويتويون: إنهم بشر. إن عبد الناصر لم يكن يملك عصا موسى، ولم يحظ ببطانة كلها صالحة ناصحة، من سوء الحظ أن بعض بطأنته أو لنقل كلهم، لم يكونوا بمستواه، إنه يمشي والآخرون يلهثون وراءه، يهرولون ولا يصلون المستواه

- كان يبعد كل شخص قوي ليلمع هو كقمر بين نجوم.

لا ليس الأمر كذلك، لقد أوتي من العبقرية وقوة الشخصية، ما جعل الأمر يبدو هكذا. كان سفير بريطانيا ، يصنع الحكومات ويسقطها متى شاء. وعندما أتى الزعيم، أنتهى ذلك كله

قال ياسر:

نعم هذا صحيح، ولكنه كم الأفواه فانحسرت الحرية.

لقد كم أفواه أعداء الشعب، والشعب الحقيقي تبعه منتشيا

رافع الرأس، وبعد الهزيمة عام ١٩٦٧ استقال: متحملاً المسؤولية

ولكن الشعب الذي يشكل ثمانين بالمئة من الوطن أعاده، وكأنت يومها تجترح المعجزات ويتغير القدر في زمن سابق امحل فيه الممكن

- إذا كان الشعب يحبه، فهذا السحر شخصيته والكاريزما) خارقة تجلت فيه، ولكنه خسر الحرب وهذا يكفي للحكم عليه بالفشل.

- إنه لم يفشل، لقد خذله الروس، وعاداه الأمريكان والغرب، إنهم يحاربون كل زعيم مخلص الشعبه، كان ينوي يومها الهجوم، ونصحوه بالدفاع، وفي الوقت الذي أغدقت

فيه أمريكا السلاح والمال على إسرائيل، كان الروس يقترون بالسلاح، او ينزعون منه الميزات الفنية، محتفظين بها كسر الأمر معكوس في الجانب الإسرائيلي

- الاتحاد السوفييتي قدم ما بوسعه وأكثر.

أنتم الذين تدعون اليسارية حاربتموه، بل حاربه كل حزب تضرر من حل الأحزاب وقيام الوحدة، كان الرجل يريد للأمة التوحد لا الانقسام، لقد رأى الجموع الغفيرة، والكثرة الكاثرة فقيرة، فدعا للاشتراكية ونفذها ، وزع الأرض، وأمم المعامل، وإذا كأنت بعض الانجازات، لم تحقق كلها ؛ فالسبب يعود إلى الإدارات الصغرى التي لم تعرف كيف تدير المعامل المؤممة، أو المزارع المستحدثة. كان يموزه جيل على مستواه وعلى آماله.

قال: ياسر:

ومع ذلك انجازاته قليلة، واشتراكيته أضرت أكثر مما تفعت الإصلاح الزراعي بعشر الأرض، وكان من المفروض، أن تتجمع من أجل محاصيل إستراتيجية، والشركات الخاصة التي اممها خسرت فيما بعد، وأكلها مديروها الموالون للنظام.

السد العالي، والمساواة، وتكافؤ الفرص، والمعامل الدائرة، وتطهير المؤسسات من المحسوبية، اليست هذه انجازات

قال ياسر:

كأنت هذه الانجازات ستتحقق بدونه، وبوجود أي زعيم آخر؛ لأن الضرورة التاريخية وتغير وسائل الأنتاج، كل ذلك كفيل بتحويل المجتمع إلى ما تحول إليه، ويجب أن لا نعطي دوراً كبيراً للفرد في صنع التاريخ.

هذه الأسطوانة، معروف عليها من الماديين والماركسيين

واليساريين الملحقين، أسألك سؤالاً : هل كأنت هناك أمة عربية موحدة، من أقصى الأرض إلى أقصاها لولا النبي محمد (ص)؟ وهل كأنت هناك لغة واحدة لولا نزول القرآن الكريم على قلبه؟ إن دور الفرد في التاريخ كبير، بل وكبير جداً، وكثير من الزعماء نهضوا بأممهم أو صنعوا أمتهم. لن تنهض هذه الأمة إلا بزعيم هذه يملك صفات الإنسان المتفوق بكل المقاييس يعني سوبرمان

زمن السوبرمانات ولى !

ما دامت النساء تحبل وتلد ، فكل شيء ممكن.

هذا القول صحيح في جزء منه، لكن تحولات المجتمع هي التي تعطي للزعيم دوره، وأنا لا أنكر أن عبد الناصر كان يتمتع (بكاريزما) ساحرة، ولكنه ليس زعيماً نادرا كما تصورونه.

ساعطيك أمثلة لأحداث ابنته لم تجمع من العلامات ما يكفي دخولها كلية الطب، فدخلت كلية التجارة حسب مجموع علاماتها، مثل أى فرد عادى وفي العام نفسه، جمع ابن سالفه الخاص مجموعاً كبيرا، فدخل كلية الطب، وهذا الكلام قال:ه في أحد خطاباته. كان بإمكانه أن لا يكسر القانون، فيرسل ابنته إلى أوروبا أو أمريكا لتدرس الطب، لكنه لم يكن ليمد يده إلى خزينة مال الدولة، وعندما مات لم يجدوا عنده فائضاً من المال، ولم يجدوا عقارات ليورثها لأبنائه أو مالاً في المصارف، ولو كان لا يحمل غير هذه الصفة، لكفاه ذلك فخراً ورفعة وتقديساً رسولنا الكريم مات ودرعه مرهونة ليهودي.

لنترك الزعيم كشخص، ونبحث في منهجه وبما فعل الناصريون بعده. أرى أنهم لم يفعلوا شيئاً يستحق الذكر، وخلفاؤه الذين أتوا بعده نقدوه وسفهوا الكثير من أعماله.

رغم أنهم كانوا خرساً في حياته، لم يبينوا له وجه الحق، أو الخطأ في حينه إما خوفاً أو تملقاً.

في هذه النقطة معك كل الحق، إنه لم يترك قيادات مناضلة مجربة، ولم يترك أيديولوجية بالمعنى العقائدي، كان له خط قومي متميز ذو أفق. كان بإمكانه أن يكون أيديولوجية، من

خلال بقائه الطويل في الحكم، ربما فضل العمل تاركاً الكلام.

وما عدا الميثاق، ليس هناك من أدبيات حقيقية وعميقة للحركات الناصرية التي ظهرت فيما بعد. وتضمحل الآن.

نظر ياسر إلى ساعته، ولم يكن يتوقع أن ساعتين من المجادلة مرا مرور السحاب، دون أن يشعر بهما.

قال ياسر:

لقد أخذنا الوقت واستمتعت بحديثك، لقد اختلفنا قليلاً، ولكن الاختلاف في الرأي، لا يفسد للود قضية كما يقولون. حان الآن وقت وصول زوجتي وأولادي من سوريا، فاعذرني وسنلتقي في جلسات ممتعة مقبلة.

ودعه وانصرف

خرج من النزل منقبضاً، فجأة حلّ عليه قلق غير منتظر، هل كان الجدال مع جواد شبروم له دور في قلقه ؟ هل ثمة إشارات من القدر، تنبئ بحدوث شيء لم يتبينه بعد ؟ هل مصدر القلق تأخر وصولها، أم أنه طرأ أمر غير متوقع الحدوث وذهبت به الظنون كل مذهب، واحتار في أمره، فذهب إلى مكاتب السفريات وسأل عن رحلات دمشق - بيروت، ولم يظفر بنتيجة، وزاد قلقه فقطن بالشيخ حامد الأغبر، وكان مسجد التقوى قريباً ، وقد حان وقت صلاة الظهر، فدخل المسجد، وتوضأ وأنتظر إقامة الصلاة واصطف المؤمنون صفوفاً خلف الشيخ حامد، الذي أم المصلين.

ومن خلال الركوع والسجود تواصلت الوساوس بياسر الخوخة

وتوقع أسوأ الاحتمالات

هل يا ترى انقلبت السيارة؟ أو حدث حادث، أم أن عارضاً أخطر من ذلك قد حدث؟

وأنتهت الصلاة، ولمحه الشيخ خلفه، فرآه قلقاً متوجساً فدنا منه مرحباً وقال:

مالك يا بني، قلقاً مهموماً على غير عادة؟

تأخرت زوجتي عن الوصول، وهذا يفسر ما أنا فيه لقد أصابتي انقباض لا عهد لي به، وانخفاض في المعنويات كبير.

دعاء الشيخ إلى بيته القريب قائلاً :

لتذهب، ولنتدارس الأمور، ولتتصل أنت ببيتك في دمشق.

وفتح لهما الباب حذيفة ابن الشيخ فقال: له الشيخ:

هل اتصل بنا أحد من دمشق، أو وصلنا زوار؟

نفى حذيفة ذلك، وقاد الشيخ ياسرا إلى غرفة الضيوف، وهي غرفة واسعة ذات أثاث بسيط، لكنه جميل ونظيف استراحا قليلاً فقال: الشيخ

هون عليك سآتيك بالهاتف، وفيه خط دولي تستطيع أن تتصل بزوجك وأبيك وتستطلع الخبر.

ونادي الشيخ حذيفة قائلاً:

إلي بالهاتف بسرعة !

وقدم حذيفة الهاتف لياسر، الذي أمسكه بلهفة ! وأدار الرقم بيد عصبية، أنتظر خائفاً مترقباً !

اجابت من الطرف الآخر زوجه قائلة والشيخ يسمع:

لقد فشلت سفرتنا، وأعادونا من مخفر الحدود. والأخبار غير سارة.

أخبريني بسرعة ماذا حصل ؟

لقد أرجعوني مع أولادي، من مركز الحدود التابع للأمن العام السوري إلى دمشق.
وقال:وا لي: إنني ممنوعة من السفر، لأن قراراً قضائياً من محكمة خاصة، قد صدر بحق زوجك مع مزيد الخشن، يقضي بمنعه وعائلته من السفر من أي منفذ حدودي وتضمن القرار أيضاً مصادرة أموالنا.

- لم؛ ما السبب؟

لأن الشرطي الذي أطلق عليه مزيد النار مات متاثراً بجراحه، واعتبروك شريكه، وأن هذا العمل الإرهابي كان ضد الدولة ورجالها.

ما محتوى القرار، هل فهمت شيئاً عن ذلك؟

سكنت قليلاً، وهي تتنهد بحزن، وقال:ت وهي تبكي:

إنه الحكم بالإعدام لكليكما، وهو صادر عن محكمة

ميدانية خاصة، تنظر في شؤون الإرهاب.

هل هو قابل لإعادة المحاكمة؟

- لا أدري بالضبط

كاد أن يغمى عليه، وأصيب بصدمة، لكنه تماسك وقال:

مدارياً صدمته

كيف حال أبي وأمي؟

امك مريضة، وتفاقم لديها الاعتلال السكري، ولكنها تتعالج أبوك لم يتركنا أبدا ، وهو يشرف معي على تربية الأولاد كان قد أرسل معي مالاً ، وكما قلت لك لم يسمحوا لنا بالسفر فعدنا. ولكنني سأرسل المال مع سائق أمين في الغد.

وولداي... ما أخبارهما ، هل يحتاجان لشيء وهل ينتقدان

غيابي؟

بكت وسمع هو نشيجها ثم تحاملت، وقالت:

من جهة أنهم مشتاقون إليك، فهم مشتاقون بطريقة لا

يمكن وصفها ، كل دقيقة يسألونني، متى ستعود؟ وكنت قد أخبرتهم أنك مسافر بقصد العمل، ولا أدري بم أجيبهم الآن، ومن جهة الاحتياجات فلا ينقصنا شيء، لأن عمي والدك، يأتي في كل يوم رغم مشاغله، ويقضي ساعتين بين حفيديه، يوجه ويشرف ويذلل الصعاب.

خلال يومين ساحوز جوالاً بخط دولي، ويمكن أن أتصل

بكم يومياً.

لا تتصل كثيراً، لأنك أصبحت أيضاً مطلوباً من الأنتربول.

كان الشيخ يسمع كل الكلام، لأن ياسر قد وضع سماعة الهاتف، بوضعية سماع عامة، ليسمعها الجميع و ليعرف الشيخ الوقائع

وقال: الشيخ:

صبر جميل وبالله المستعان، لا تجزع يا بني،

لقد أنتهيت يا مولانا، وحكمت ظلماً بدون جريمة اقترفتها ، واللوم كله على مزيد الخشن.

لا تجزع ولا تحزن، واصبر كما صبر أولي العزم من الرسل.

ومازال الشيخ يهون عليه، ويقص عليه القصص؛ مذكراً بالأهوال التي لاقاها الرسل والعظماء، والتي أنتهت و حلت بأسهل الطرق وأهونها، حتى انفرج عنه قليل من الفم.

ثم قال له :

في أسوأ الحالات، تمضي بقية عمرك في لبنان، وتأتي بالعائلة بطريقة ما.

- أما سمعت أنني مطلوب من الأنتربول الدولي !

ستظهر الحقيقة إن عاجلاً أو آجلاً.

وجاء حذيفة يدعوهما إلى غرفة الطعام، فقد جهز الغداء.

وقال ياسر:

ليس بي رغبة في أي طعام.

بل سناكل معاً، وستحل الأمور بأسهل الطرق.

وأنتقلا إلى غرفة الطعام، وتناول حذيفة معهما طعام الغداء لكن ياسراً لم يتناول سوى قليل منه، ولما فرغوا وغسلوا أيديهم

قال له الشيخ:

ادخل غرفة النوم لترتاح قليلاً.

سأذهب إلى غرفتي في البنسيون.

ستظل الليلة عندي، وسأتصل أنا بمدام جورجيت حتى لا

تقلق عليك، وأعطاه منامة وقال:

البسها وسأعود بعد قليل، ثم انصرف.

ولما عاد بعد برهة، وجده على حافة الفراش حائراً يتقلب في موج الحزن، الذي كاد ينهيه، إنها أقوى صدمة في حياته، ولم لا تكون كذلك ؟ ! وهو الآن مطارد حتى في بيروت نفسها فاضطر الشيخ إلى إعطائه حبة مهدئة وقال:

هذه ستريحك حتى صباح الغد.

ابتلعها مضطراً لأن صداعاً في رأسه كالمطارق أغلق عليه كل منفذ للراحة وجلب له كل ألم. وتراكمت فوقه غيوم سوداء طبقات فوق طبقات حتى فكر بأن أفضل حل هو الأنتحار. لكنه عندما شرب الحبة تلك تلاشت الغيوم، وانقشع الأفق، وبدأ خدر

اللذيذ يسري في عروقه، وزال الغم لتحل اللامبالاة، واستسلم النوم عميق

في الصباح، عاد الشيخ حامد من صلاة الفجر، فلم يسمع أي حركة، أو صوت في غرفة ياسر فقرأ الشيخ ورده واذكاره وشرب قهوته، وأصاخ السمع تجاه مرقد ياسر، ولم يسمع أي

صوت من تلك الغرفة فتقر الباب وقال:

الم تستيقظ يا بني، بعد؟

فلم يرد أحد ، فقلق وساورته وساوس، ففتح الغرفة فوجد ياسراً مستيقظاً، يحملق في السقف

قال الشيخ:

هل استرحت، وهدأ بالك؟ فلم برد. فقال: له بقلق وعصبية

مالك يا ياسر ؟ ألا تستطيع التكلم؟

فاوما بعينيه إيجاباً، وكانه يقول: نعم.

ونادي الشيخ ابنه حذيفة

احضر طبيب القلبية الدكتور قولجيان بسرعة

وبعد لحظات حضر الطبيب، فشرح له الشيخ الأمر كله، وكيف أعطاه حبة مهدئة، ونام على إثرها كل هذا الوقت الطويل، وقاس الطبيب الضغط، وخطط القلب، وفحص البطن ودق بالمطرقة الخشبية ما تحت الركبة.

ثم قال:

يحتاج لتصوير طبقي محوري، وربما لرنين مقاطيسي وتصوير إيكو دوبلر للشرايين، ولذلك لابد من نقله لأقرب مشفى ودخل مشفى الرحمة وتعاقب الأطباء، وأجريت الفحوص والتحاليل، وهو عازف عن الكلام، وعلقت له الممرضة السيروم بناء على أمر الطبيب

وقال الشيخ لابنه :

اخبر مدام جورجيت بالأمر، حتى لا ينشغل بالها من غيابه وحضرت بعد فترة المدام، قلقة ملهوفة جزعة وعانقته كام،

وقبلته كأغلى مخلوق وقالت:

ابني ياسر حبيبي، ماذا ألم بك؟

حاول التكلم فلم يستطع. وسألت المدام الشيخ الواقف قربها :

ماذا قال: الطبيب؟ وما نتائج التصوير والتحاليل؟

يقولون: إنها صدمة وتشنج، لبعض عصبونات المخ، وبعض الشرايين الدقيقة، التي تغذيها.

وإلى متى سيستمر صمته؟

- أسبوع أو أسبوعان.

ولم تفارقه طيلة مرضه واستلم كبير الطباخين إدارة البنسيون، وكأنت في الليل تظل بقربه هاجعة حينا، ومستيقظة أكثر الأحيان. وخافت عليه كابن حقيقي، وكذلك الشيخ حامد، الذي دفع التكاليف كلها، ولم يغادر المشفى إلا وقت

الصلاة، ولم يشهد المشفى قدوم مزيد الخشن، لأنه غادر البنسيون، واستأجر شقة راقية بواسطة أبي أرز، وعمل سائقا و (بلطجياً) وحاميا للمغنية الصاعدة ندى الصباح، التي هي في الحقيقة جمانة نفسها التي غيرت اسمها . ونجحت بالمرتبة الثانية في المسابقة، وتعاقدت مع أحد المطاعم الراقية قرب البحر، لتغني كل ليلة وصلة بمردود ما كأنت لتحلم به، ولم تعرف المدام على وجه الدقة، أعلم مزيداً بصدمة ياسر ومرضه أم لا؟ لكن من الموكد، لم يسأل عنه.

ونطق ياسر أخيراً، وكأنت أول كلمة نطق بها :

هل عند الشرطي، الذي قتله مزيد أولاد؟

قال الشيخ:

من الطبيعي أن يكون عنده أولاد إن كان متزوجاً.

أي جريمة فظيعة، ارتكبت باسم النضال والحرية، وتحقيق الأهداف الرجل مات ولم يؤد رسالته تجاه أبنائه، وقتل بلا سبب إلا أنه مولج بملاحقة من يعترض مسيرة الحكومة، وسيتربى

أولاده في بؤس اليتم، والأدهى من ذلك وأمر، أنهم اعتبروني شريكه في هذه الجريمة الإرهابية التي أدينها، مهما كأنت شخصية مرتكبها.

قال الشيخ:

هون عليك أنت لست مسؤولاً عن هذه الجريمة.

اشكرك يا شيخ حامد، وأشكرك يا أمي، لقد كنتما نبع

وفاء، أريد منك يا مولانا ، أن تساعدني بإيجاد عمل هنا، فإنه لا يرتاح ضميري، إلا إذا أكلت خبزي من عرق جبيني.

- سيكون لك هذا في وقت قريب.

واقترحت مدام جورجيت نقله إلى البنسيون، وأيد ياسر

الفكرة، وتم ذلك بسيارة أبي أرز.

وخلال الطريق، قال أبو أرز:

- إن مزيد الخشن، قد تزوج عرفياً من جمانة الهير، التي أصبحت تغني في مطعم الموج الكاسح على البحر، قرب الروشة وصار اسمها الفني: (ندى (الصباح) ، ومزيد يعمل سائقاً لها، وبلطجياً يحميها من عبث السكارى في المطعم. وقد نجحت في مسابقة الغناء بالدرجة الثانية، ولذلك لم تنل الحظوة التي نالتها الأولى، ومع ذلك تعاقدت مع ذاك المطعم المشكلة في هذا المطعم، أن مرتاديه من المهربين والأشرار وأصحاب السوابق ربنا يحميها.

وقال: ياسر في نفسه : (كم من السقطات ارتكبت يا مزيد ويبدو أن أمامك المزيد)

(٩)

الأيام كفيلة بإبراء الجراح، حتى ولو كأنت بحجم الكوارث.

مضى أكثر من عام على تلك الصدمة، تجاوز فيها ياسر انكساراته، فوجد أن أفضل الحلول أن يفرق في العمل، ويحقق الانجازات، إنه يعد الآن ذاته لدراسة الماجستير، وتأليف الكتب.

ومرة سأله الشيخ حامد :

كأنت صدمة وتجاوزتها ، أخبرني عن شعورك في ذاك الموقف الصعب.

قال ياسر:

لم يصدمني حكم الإعدام، ولا الخيانات التي تلت ما آلمني موت الشرطي، الذي قتله رفيقي مزيد. ما مصير أطفاله الذين غدوا أيتاماً؟ إن أعلى الأهداف وأنبل الغايات، لا تعادل نقطة دم تراق من إنسان يؤدي واجبه، ويسعى أمام أسرته وأولاده ما هكذا يكون النضال، ولا تتحقق الحرية بهذه الوسيلة. إن القتل مرفوض، مهما كأنت الأهداف التي يسعى القاتل لإنجازها.

أكبر الشيخ مروته وضميره الحي، وسعى بشكل حثيث فعثر له على عمل، إنه مدير أضخم مكتبة في بيروت، هي مكتبة (الأفق المفتوح).

تضم آلاف الكتب، وعشرات الموظفين، وكان صاحبها، يعرف الشيخ حامد، ويتردد إلى مجلسه، يتشاور معه في أدق أموره ويخبره عن الكتب الجديدة التي تصل مكتبته، لقد كان الشيخ حامد قارئاً جيداً، ليس لكتب التراث فقط، بل لكل ما يصدر عن الحداثة والتقدم، ساعياً وراء الأفكار الجديدة، فيوظفها في خدمة فكره، وغالباً ما رأى أن الأفكار العلمية، والتقدمية والحضارية، لا تتعارض مع جوهر الدين الذي هو الحب في أرقى معانيه. كان مدير مكتبة الأفق المفتوح قد تقاعد، وحل محله ياسر، واعتبر ياسر هذا العمل انجازاً خاصاً له، كونه يحقق له هواية طالما عشقها، فلقد أحب منذ مطلع حياته القراءة، والبحث و التأمل والتفكير، وداوم على صحبة الشيخ بعد أنتهاء دوامه في المكتبة، فكانا يلتقيان مساء في بيت الشيخ، وكثيراً ما تناقشا في أمور، بدت لياسر في الوهلة الأولى، أنها مغايرة لأفكار محدثه، ثم ما يلبث أن يدقق الأمر، فلا يجد أدنى تعارض. لعله ترك التطرف، وابتدأ التغيير ملتمساً طاقة روحية افتقدها.

و في يوم قال له الشيخ:

أنت تفرق أحيانا في الماضي لدرجة مخيفة، إن الماضي دوامة

إذا تركته يسيطر على حاضرك وساعتك التي تعيش؛ فإنه يمتصك ويجرفك اهتم بالآتي وليكن في نظرك مشرقاً، مهما تراكمت الغيوم السود. ركز على الخطوة الأولى في مسيرتك القادمة فهي أصعب خطوة، لكنك ما إن تتخذ تلك الخطوة فإن الأمور ستجري بشكل طبيعي للأمام، وسيأتي ما تبقى من تلقاء نفسه، لماذا لا تعد نفسك، وتسعى للعلم الأكاديمي إضافة إلى تأليف الكتب، فالمراجع بين يديك؟

- علي أن أفعل ذلك، وسأبدأ بالماجستير و التحضير للدكتوراه.

عاد إليه الحلم القديم، وكان قد اقتنع بالفكرة من كان بالجامعة، لكنه تراخى عن التنفيذ، وتراكمت عليه الأحداث

ومن فوره بدأ التحضير

بعد مرور بضعة أشهر في إدارة المكتبة، حدثت له حادثة ظلت لغزاً لفترة من الزمن، دخل رجل يشبه مزيد الخشن، وقد علق تحت أنفه شاربين مرفوعين للأعلى كذيل عقرب لمحه ياسر فقام من مكانه مقترباً، ربما كان يبحث عن عنوان كتاب.

قال ياسر:

اهلاً مزيد أين أنت يا رجل؟ أراك وقد اطلقت شاربيك !

قال الرجل:

أنت غلطان من يكون مزيد يا هذا ؟

ولى مسرعاً دون أن يبحث عن مطلبه، وتعجب ياسر من تصرفه هذا، إنه مزيد بعينه، ولا يعقل أن تخونه حواسه، فهو يعرف مزيد بدقة، وأراد أن يتأكد وكان يلتقي بابي أرز احياناً، فلما

صادفه، قال:

اتلتقي بمزيد في هذه الأيام؟

نعم و أحياناً أوصله و جمانة؛ أعني ندى الصباح، إلى

كازينو الموج العاتي.

هل أطلق شاربيه للأعلى؟

نعم من أخبرك بذلك؟

جاء المكتبة. ولما سلمت عليه أنكرني، مدعياً أنه لا يعرف مزيد.

الهذه الدرجة تبلغ به الخصة حتى يخفي عنك أمر تغيير اسمه، والظهور بشخصية جديدة أمام الملأ.

ثم استدرك أبو أرز

ربما أراد أن يخفي عنك عمله الجديد، كبلطجي يحمي الغانيات، فلقد سمى نفسه نمر أبو البارود.

هلا شرحت لي الأمر أكثر؟

لقد زورت له هوية بهذا الاسم، وتخلى عن شخصية مزيد الخشن، وأوصاني أن أكتم الأمر، فلم ابح بذلك لأحد إلا إليك الآن

هل تزوج من ندى الصباح اقصد جمانة؟

اظن ذلك ولكن بعقد عرفي

لماذا لا يكون العقد رسمياً؟

لأن المغنية مرغوبة أكثر، إن لم يكن لها زوج، فبدل أن

تكون الواحد تصبح لكل الناس.

اهكذا بدأت الأمور تقاس؟

التغيير يكتسح كل شيء والقادم أسوا.

هل تعلم ماذا جرى لشكري الهبرة

مات مع أخته تفيدة في الغرفة نفسها، ولم يكتشف أحد موتهما إلا من خلال الرائحة النتنة، بعد أن تفسخت جثتيهما بعد أسبوع من موتهما، فتكفل الجيران بدفنهما.

وندى الصباح وأمها تغريد، ألم تحضرا الجنازة أو تذهبا

فيما بعد إلى حلب؟

لا لم تذهبا رغم علمهما بالأمر منذ البداية.

والأم أين تسكن الآن؟

مع مزيد وابنتها في بيت واحد.

و أردف كمن يزف خبراً :

هناك حب بين الأم، وبين مخرج يعمل في الفضائية، التي

أجرت المسابقة، وقد وعدها بالزواج.

تراب زوجها لم يجف بعد !

جف أو لم يجف الحب ليس له قانون.

و ضحك ياسر بقرف و قال:

العهر ليس له قانون يا سيدي، سبع مباركات بهذا الدرك الوضيع، الذي وصلوا إليه.

وكثرت لقاءات ياسر بالشيخ حامد الأغبر، غالباً في داره يسهران حتى الفجر، وغالباً ما يتناقشان بالفكر والسياسة وأمور الحياة وفلسفتها، ولاحظ الشيخ تغيراً في ملامح ياسر

انعكست على أفكاره، فقال له :

اراك في هذه الآونة برماً، تكره الناس، لعل انحراف مزيد قد أثر فيك

هناك قذارات وتفاهات المحها في بعض الناس الذين عرفتهم، مثل يونس ومزيد.

- إن القذارة الحقيقية، تقبع في الداخل القذارات الأخرى

تزول بغسلها، وتوجد قذارة لا يمكن تطهيرها بالماء النقي، وهي لوثة الانحراف والكراهية والتعصب، التي تلوث الروح كان مزيد بالنسبة لك رفيقا، لكنه رفيق مزيف، ويوجد أمثاله في الكون مزيفون بعدد أوراق الشجر، لا تخلط بين الأشخاص الأنانيين، وبين الرفاق الحقيقيين، فالرفيق الصادق، يساعدك على أن تقدر نفسك الداخلية وتحترمها، إن الأصدقاء الحقيقيين شفافون كالبلور، يمير نور الله من خلالهم.

ثم اردف الشيخ مغيراً الموضوع باتجاه آخر:

إلا تحن للنضال و أيامه؟

كأنت أيام كنت فيها سعيداً، لكنني لم أكن لأملك الإدراك الكامل من الوعي، أما الآن فثقتي قلت لكن وعيي ازداد، والسبب أنت تعرفه

- إلا أدلك على أهم نضال وأفضل رسالة؟

- ما هو؟

تؤلف كتباً، وهذه بداية الطريق، التي المحت إليها، إنها الخطوة الأولى.

عم ؟ وما الموضوعات؟

- اسمعت عن كتاب (صراع الحضارات)؟

نعم سمعت عنه، إنه يحض على التصادم و الصراع والاقتتال بين الأديان الإسلام، والبوذية من جهة، والمسيحية واليهودية من جهة ثانية. الغرب يريد عدواً بعد انهيار الشيوعية، إنه مافتئ يبحث عن عدو بدون كلل، وبأي ثمن لا أستبعد أن يكون للمخابرات الأمريكية يد في تفجير برج التجارة العالمي، وافتعال أحداث الحادي عشر من أيلول من أجل خلق مسوغ للحروب والصراعات وقد غاب يوم الحادث، ثلاثة آلاف يهودي عن العمل في برج التجارة، كان هناك اتفاقاً فيما بينهم.

- أريدك أن ترد عليه بكتاب تقند فكرته المشبوهة، وغير البريئة، ليكن اسم الكتاب القاء الحضارات)، وهذا العمل إذا انجز هو أعلى مراحل النضال.

- فكرة رائعة سأعمل عليها وأنجز الكتاب.

وصار يقرأ الكتب، ويختار المراجع التي سيعتمد عليها في مشروعه ذاك.

وفي إحدى الليالي كانا يسهران، وقد بلغ الصفاء الروحي من ياسر مداه، قال: للشيخ

في البدء كنت أظن أن تعارضاً بين أفكاري وأفكارك محكوم بمئة وثمانين درجة، ومع الزمن واحتكاك الفكر وجدت الفروق تتلاشى، بل أكاد أقول تتطابق، كنت أكره رجال الدين، لأن بعضهم يسوع للظالم جوره، ويلبس الباطل ثوب الحق، وكأنت الكراهية بين رجال الدين واليساريين العلمانيين بيئة واضحة، ومع الأيام وجدت قراءات متعددة للفكر الديني القراءة الصحيحة، أنه فكر يدعو للحب ويكره الظلم، ولا يوجد تعارض بينه وبين العلمانية القائمة على الحكمة دون التطرف

قال الشيخ:

هناك فريق من البشر يصف نفسه بالعلمانية، وينعت غيره بالجهل يردد مثل ببغاوات تعابير مسبوكة بقوالب جهزت له مسبقاً، فحفظها وكررها ، إنه بعيد عن العلمانية والموضوعية

وفريق آخر يدعى أنه الحقيقة المطلقة، وأنه ممثل حصري للدين، ووكيل الله على الأرض فهو ظله، يكفر غيره ويحاربه، هذا الفريق هو الوجه الآخر لتلك العملة أدعياء العلمانية وأدعياء الوكالة الحصرية، هما وجهان لعملة واحدة، بعيدة عن الحكمة وروح الإسلام إن كان برج التجارة قد فجر من هؤلاء أو أولئك، فإنه قد أضر الإسلام والمسلمين، وقدم للمخابرات الأمريكية من الفوائد ما عجزت عن تحقيقه بعقود، أنا وأنت وأمثالنا كثر، لسنا من هؤلاء ولا من أولئك، نؤمن بالروح والجسد والفطرة التابعة من الأرض، ونؤمن بالحب الذي هو أرقى أشكال العبادة، نبحث عن الله في داخلنا، فنجده في الزهرة والشجرة والطير المفرد، نؤمن بالعدل والمساواة والحرية، التي لا تسلب الآخرين أشياءهم، أو تتعدى على حرياتهم، ونظل تحت سقف القانون متساوين متحابين متألفين متراحمين، لا يستغل أحد أحداً. التقيت معك وكنت تؤمن بالأفكار نفسها ، لكنك ظننت أنني متزمتاً عدوانياً، أسعى لإلغاء الآخر، لم تدرك ذلك من أول لقاء، أنا أدركت ذلك، لأنه لو كنا اختلفنا ، لما كان لقاء، ولا كان نقاش، ولا كان ارتباح، ولا كأنت جلسات وسهرات أنت أنتسبت لحزيك، فاعتقدت أنه طريق الجنة الأرضية، فاندفعت اندفاعة الشاب الذي يعوزه التمحيص

واروك مثلاً براقة، فقلت لهم متى تنفذ وكيف؟ قال:وا بالنضال اليومي، الدؤوب لتحطيم ماكينة الدولة البرجوازية. هذا النضال قاد مزيد الخشن، إلى قتل الشرطي المسكين، فيتم أولاده

وافتدهم حنان الأب أي أفكار ومثل تبيح القتل من أجل الحرية. الحرية لا تأتي إلا بالحب والوعي والإيمان الحق وانا بدوري أملت بمثل من التراث، وبأشخاص كانوا نماذج للعدالة والمساواة كنت أسعى للحرية والعدالة والمساواة أفكارك لنسيا ولكن بالبلاج) مختلف يعني بشكل خارجي وبمضمون واحد إنه موشى بالنصوص والخط العربي والقال:ب الديني.

قال:وا لي لنسر على خطوات الأجداد، وتحقق أهدافنا بعد السيف، كما حققوا هم أهدافهم بتلك الوسيلة، وقد نسوا أن ما جاء بالسيف، فبالسيف يعود وأن الأفكار لا تثبت والتجذر إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن، فالفكرة الخاطئة لا تدحض إلا بالفكرة المحقة، قلت لهم مجدداً : (ما وسائل تحقيق الأهداف، ونحن في عصر الفضاء والسيليكون والاتصالات)

قالوا : بما توصل به أجدادنا الأقدمون أطلق اللحي، وحث

الشارب، البس الثياب القديمة الطويلة، وأنتعل خف الصحراء نمنا في العسل، وسلمنا قيادنا إلى السيد المبجل الأردغلي، صاحب تلك الأفكار، فخذلنا وخان واستلم الوزارة، ثم امتد بصره إلى دار الإفتاء فأتى عليها ، فعرفت وأدركت أن تلك الأفكار وسيلة إلى الكرسي ليس إلا. وأنه قد غرر بنا ، وكنا السلم الذي صد عليه غيرنا إلى الأعلى.

قال ياسر:

مثلما جرى معي جرى لك، وأريد أن أسألك سؤالاً : إذا ملكت المال والفكر والأعوان، هل تشكل حزباً دينياً مجدداً ليس من أجل المنصب، وإنما من أجل تطبيق أفكارك؟

لا أبداً ؛ لأن ذلك يستدعي من الآخرين تشكيل احزاب دينية متصارعة، لا أريد أن أفرض على الناس وجهة نظري، أو أقسرهم على إيمان، يخالف وجهة نظرهم، ساعتها يلغي كل منا الآخر؟ إنني أجد عدم تعارض بين العلمانية وبين الدين، رغم كل ما يشاع عن تعارضهما القوانين العلمية والرياضيات والمعادلات الدقيقة تسير الكون بتلك التوازنات الدقيقة يسير الله ملكه وعباده وكما تعلم فإن الكتب السماوية الثلاث هي من عند الله، فإذا كان الله خالق الكون، المسير بالقوانين والمعادلات الدقيقة والتوازنات الصارمة، فان الدين الذي هو أيضاً من عند الله، يجب الا يتعارض مع تلك القوانين الدقيقة، والتوازنات المبرمجة بدقة متناهية. وإذا وجد تعارض فيكون الخلل من فعل البشر، في التأويل والتفسير والإضافات التي ما أنزل الله بها من سلطان. وعندها فقط سنجد ابتعاد الدين عن العلم، أو ابتعاد العلم عن الدين. كل دين يخالف ناموس الكون، فهو مضاف ومخالف الفطرة الله التي فطر الناس عليها. أنت علماني، وأنا رجل دين متنور كيف التقينا ؟ التقينا لأنه لا تعارض بين العلمانية والفهم الصحيح للأديان، التي

في جوهرها المحبة، وقرآننا يقول: " أَنَّهُ مَنْ قتلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسِ

جميعا. وعندما قتل زميلك مزيد الشرطي، أصابتك تلك الصدمة الصاعقة أنت، مع العلم والدين الصحيح، في الوقت ذاته، وانا كذلك. لقد قرأت مرة كلاما المتصوف معروف يقول: (يمكن أن تدرس الله، من خلال كل شيء، وكل شخص في هذا الكون لأن وجود الله لا ينحصر في المسجد، أو في الكنيس، أو في الكنيسة، لكنك إذا كنت لا تزال تريد أن تعرف أين يقع عرشه بالتحديد ؟ (يوجد مكان واحد تستطيع أن تبحث فيه عنه، وهو قلب عاشق حقيقي. فلم يعش أحد بعد رؤيته، ولم يمت أحد بعد رؤيته)

يا لتأويلك، المبني على الفهم العميق للدين، وعلى العلم والمنطق والإقناع.

لكني أريد أن أسألك سؤالاً يا مولانا ، هل وظفت إماماً في هذا المسجد، بدعم من سياسي او متنفذ.

لا أبداً، كنت أصلي دوماً في هذا المسجد، وكثيراً ما تغيب الإمام، بسبب تجارة يديرها، فكنت أنوب عنه، ثم استقال: ذلك الإمام ليتفرغ لتجارته، وأرادت أوقاف بيروت، تعيين إمام جديد للمسجد، فذهب حشد من الأهالي، الذين كنت ألزمهم وطالبوا بتعييني إماماً لمسجدهم، ورضخت أوقاف بيروت لتعييني إماماً لقاء راتب، فرفضت الراتب، وقبلت أن أكون إماماً، ما قيمة صلاة مأجورة؟ عندها تصبح العبادة من أجل مصلحة، وبعض الناس يحبون الله من أجل مصلحة، إن العبادة الحقيقية للذات

الإلهية في نظري يجب أن تكون منزهة عن المصلحة، أو الخوف إن عبادته خوفاً هي عبادة العبيد ، وعبادته طمعاً هي عبادة التجار، أما المؤمنون حقا فيعبدونه لذاته، لأنه هو الحب الحقيقي، الذي يقود إلى النور، وقد قال: جلال الدين الرومي

اختر الحب الحب ا فمن دون حياة الحب العذبة، تمسي الحياة عبثا ثقيلا العشق هو جوهر الحياة)

وسارع ياسر في إعداد كتابه، لقاء الحضارات وكان أحياناً يناقش مدام جورجيت في بعض الأفكار، فوجد عندها ثقافة واسعة.

وفي أحد الأيام، بينما كان في المكتبة جالساً، إذ شاهد مدام تفريد، تتابط ذراع رجل ستيني، فأدرك أنه المخرج، الذي المح إليه أبو أرز، كانا يبحثان عن رواية، وكأنت تغريد نضرة أكثر من أي وقت مضى تبدو أصغر من عمرها، وكأنت قد تخلت عن غطاء الرأس، فبدا شعرها الذهبي، متألقاً وجميلاً، وكأنت ترتدي فستاناً فيروزياً دون أكمام مرشوشاً بزهور بيضاء ناعمة

يكشف عن ساقين ناعمتين بلون الحليب عندما دخلت، كأنت تتأبط ذراع مرافقها العجوز، وأثناء البحث تركت يده، وانحنت تبحث عن كتاب في رف سفلي، فلفتت النظر ببياض فخذيها اللذين انحسر عنهما فستانها بلا مبالات

تعجب ياسر لتطورها السريع، وتخليها عن شيء قليل من

احتشام يناسب عمرها، ربما كأنت تبحث عن حب بلهفة منقطعة النظير، فوجدته في هذا المخرج، الذي لم يكن وسيماً فيما مضى، أما الآن، فإنه يبدو كدب منتوف الشعر من رقبته الغليظة التي تطفح بالدهن وتترهل لبدات ذقنه، بثنيات ممطوطة أما أنفه، فكان مثل باذنجانة مشوية ومسترخية.

لما رأت ياسر ارتاعت قليلاً ، ثم قال:ت مقلدة طريقة ارستقراطية في الكلام:

أووه (ياسر أنت مازلت في بيروت)؟

نعم كيف حال الآنسة جمانة؟

تقصد ندى الصباح؟

نعم.

إنها أشهر مغنية في لبنان الآن (بردون) عذراً، نسيت أن أعرفك بالمسيو برهان، إنه المخرج المعروف والأشهر من أن يعرف هو مخرج (استديو المسابقات التي تخرجت منه ندى الصباح، إنه صديق حميم.

ما اخبار مزيد الخشن؟

اي مزيد؟ مزيد مزيد أظن أنه رفيقك نزيل البنسيون ! منذ غادرنا لم نعد نراه

- إذا صادفته ستدهشين لشاربيه الواقفين كعقرب

في الحقيقة نحن نبحث عن رواية انقلاب المفاهيم)، لجعلها

فيلماً سيسند لي الأستاذ برهان، دور البطولة فيه.

عظيم. ابحثا عنه بين الرفوف.

وعاد ياسر إلى مقره، متعجباً من كذبها وخيأنتها لزوجها ، الذي ارتشى ليسعدها ، ثم مات وأخته وحيدين، بلا مواس ولا معين، وهاهي تتأبط ذراع ذلك القواد المعروف، في الوسط الفني بعهره ودعارته، والذي سيسوقها إلى المسلخ الذي لا مفر منه. وتخيل شكري الهبر، الذي بحث في آخر لحظاته عمن يرافقه ليغسل كليته، فلم يجد أحداً، ووجد أخته تفيدة إلى جانبه تموت من فتك داء السكري، الذي نخرها وتساءل...

أين يكمن الخطأ؟

وعجز عن الإجابة فقال:

لابد أن خطأ ما في مكان ما ، قد ارتكب وأدى إلى ما أدى إليه من تدهور الأخلاق، وازدهار الخيانة، إنه زمن الخيانات

(١٠)

تلقى ياسر من أبيه اتصالاً ، يخبره فيه بأن أمه في أشد حالات مرضها سوءاً، وربما باتت أيامها قليلة في هذه الدنيا ، فبات منشغل البال قلقاً على تفاقم مرض امه وهو بعيد، وهي ما فتئت تطلب قدومه لرؤيته قبل الممات

آخر مرة اتصلت به قالت:

أمنيتي الوحيدة في هذه الدنيا، أن أراك قبيل الرحيل، لا احتك على المجيء، لأن قدومك فيه من الخطورة الكثير فيكفيني الآن سماع صوتك.

قرر في نفسه أمراً ، وهو ضرورة الذهاب إلى دمشق، لرؤية أمه مهما كلف الأمر. هو يعلم أن حكم الإعدام بأنتظاره، ولكن الأقسى من ذلك عدم تحقيق الرغبة الأخيرة لأمه، وقد تأكد رحيلها.

وشاور أبا أرز في الأمر وحكى له التفاصيل، فقال: أبو أرز

الحل بسيط: هوية مزورة، بمسوح رجل دين، وعبور طرق جبلية وعرة وسرية، لكنها ممكنة بعدها تكون بحضرتها ، وتنعم بلقياها.

هل احتمال وقوعي بيدهم كبيرة؟

- أكذب عليك، إن قلت لك إن عبورنا لا يكتنفه خطر ولكن رغبة الأم فوق كل رغبة.

لنعد أمر السفر إذن، وفي الحال مهما كأنت النتائج.

تأمل أبو أرز ملياً، فتأمله ياسر منتظراً ما سيدلي به من مطالب، لكنه استمر في صمته فقال: له ياسر:

بم تفكر وقد استغرق صمتك الكثير من الوقت؟

أفكر باي (كركتر) أو هيئة سوف تكون هويتك الجديدة؟

ماذا تعني بأي صورة أو هيئة؟

اذهب للشيخ حامد الأغبر، واستمر منه ققطاناً وجبة

وعمامة، أي ثياب ومسوح شيخ كاملة، ودع ذقنك من الآن طليقة ولا تضع الوقت أسبوع وسيكون كل شيء جاهزاً، ونسافر.

وسهر عند الشيخ حامد الأغبر، وقص عليه قراره بالذهاب إلى دمشق طلب منه أبو أرز فقال:

عندي جبة إضافية جديدة، وعمامة بيضاء، وطربوش أحمر، وكل المسوح اللازمة لهيئة شيخ، وأظن أن قياس ثيابك هو قياس ثيابي نفسها.

وجاءه بالجبة والعمامة فلبسهما، كانا بتمام القياس وكانهما فصلا على جسمه تفصيلا، وذهب إلى المصور بعد أيام بهذا اللباس، وسحب العديد من الصور وقدمها إلى أبي أرز الذي

قال:

بعد يومين تكون الهوية الجديدة المزورة جاهزة، ولكن عليك الآن اختيار اسمك الجديد.

- ليكن بديع زهران

اسم جميل ويصلح لشيخ شاب.

وسأله للمرة العاشرة

هل الأمر برأيك يا أبا أرز يستحق المجازفة؟

نعم يستحق، وإلا ستبقى معذب الضمير إلى الأبد.

وأخبر ياسر أباه من هاتف عمومي، بأنه سيهبط دمشق بعد يومين، جاعلاً كلامه مرمزاً بقدر الإمكان قائلاً :

ستصل الأمانة دمشق، وسيتصل السائق بك ليحدد لك مكان الاستلام.

بعد يومين سافرا إلى عرسال، وعبرا طرقاً جبلية وعرة وسرية وصلا يبرود مجتازين الحدود، وكان ياسر في المقعد الخلفي يرتدي القفطان والعمامة، وقد برز شعر ذقته الأشقر بوضوح، قال أبو أرز:

ها قد وصلت سوريا، بعد غياب عشر سنين، فما شعورك؟

دعني من وصف شعوري يا أبا أرز، وتتعد للخطوة القادمة فاي خطيئة مهما كأنت صغيرة دونها حبل المشتقة

لا تخف سيكون كل شيء على ما يرام

ودخلا دمشق عصراً، وتوقف أبو أرز عند هاتف عمومي ليتصل بأبي ياسر

فرد عليه الآب، فقال أبو أرز:

- وصلت الأمانة :

ساستمها عند جامع الإيمان في المزرعة

وذهبا إلى جامع الإيمان، وأوقف أبو أرز سيارته في شارع خلفي ومن بعيد شاهد ياسر أباه يترجل من سيارته، فقال: لأبي أرز

هذا هو أبي انزل وأرشده إلى مكان سيارتنا.

ونزل أبو أرز، وقاد الأب إلى السيارة، فاتحاً له الباب الخلفي فوجد أبو ياسر شيخاً معمماً، وعرف بعد التدقيق أنه ابنه ياسره وقد غير من هيئته، فعانقه بحرقة وحنين

ثم قال لأبي أرز:

التخرج من دمشق بسرعة إلى يعفور

ثم متوجهاً بالقول لابنه ياسر:

استمرت من أحد التجار، وهو صديق لي ذو ثقة مزرعته لأيام، وإليها نقلت زوجتك وولديك. وخصصت جناحاً أرضياً من الفيلا لأبي أرز، وهناك كراج للسيارة له، مغلق لإخفاء السيارة أيضاً، فلا يعرفها أحد. ستمكث يا ياسر، في المزرعة، حتى منتصف

الليل، وسيستريح أبو أرز في جناحه الليل كله. أما أنا فساتيك في منتصف الليل، بسيارة صاحب المزرعة لاصطحابك إلى بيتنا في المالكي، لترى أمك وتقضي عندنا بقية الليل، أما الآن وبعد وصولك، فلديك أكثر من ثماني ساعات، لتنعم برؤية ولديك كفاح وثائر وزوجتك سارين.

وصلا المزرعة، وترجل يأسر من السيارة داخلاً الفيلا، بينما عاد أبوه إلى دمشق بسيارة أبي أرز، الذي سيعود بدوره مجدداً إلى المزرعة بسيارته ويختفيا فيها.

أطلت الزوجة من الشرفة، ونزل ولداه كفاح وثائر إلى الطابق الأرضي، واستقبلاه عند الباب. عانقهم بكل حنان، لقد كبرا خلال السنوات العشر وتغيرت ملامحهما، شارفا على بلوغ الأهلية، ويستعدان للثانوية العامة صعد إلى الطابق العلوي، حيث زوجته سارين بأنتظاره، فعانقها وكأنت لحظة حميمية، بكي فيها الجميع.

قالت سارين:

اراك بمسوح الشيوخ وكنت تكرههم فيما مضى.

كان لابد من تغيير هيئتي لمنع الاشتباه وللتمويه، وأردف ليس هناك من عدو دائم.

وقص عليهم ما جرى، وتبادلا الأحاديث وبعد ذلك دخل الحمام، وأخذ دشاً ساخناً، ولبس منامته وتناولوا على مائدة أنيقة غنية طعامهم وبعد استراحة قصيرة قال:

ما رأيك يا سارين، أن نعود أنا وأنت والأولاد بعد شفاء أمي إلى لبنان، ونقضي بقية حياتنا هناك، وتعلم ولدينا في أرقى الجامعات

جوبه برفض قاطع منها، بينما فرح الولدان بالعرض.

وقالت له :

أمامي مستقبل وظيفي هام وواعد، وأنا الآن أتبوا منصب نائب رئيس مجلس المحافظة، ومرشحة الرئاسة البلدية أيضاً.

الأولاد بحاجة عاطفية لأبيهم، وقد حرموا منها لسنوات عشر، وهذا قد يؤثر على نموهم الانفعالي والنفسي، سيشعرون مستقبلاً بتوق قاهر وعطش لحنان الأب، كما أنني أنا بحاجة إليك وإليهم، ولا تنسي الحب الذي كان.

علينا أن نكون واقعيين، يحادثونك وتحادثهم بالجوال والكمبيوتر، إن سفرهم سوف يؤثر بشكل مفاجئ على حياتهم ويغيرها للأسوا، ولاسيما أنهما في مرحلة مفصلية من حياتهما.

تنتظر لما بعد البكالوريا)، وقد أجد لك وظيفة هامة في لبنان ....

وانقطع الحديث، بدخول أبيه المزرعة بسيارة صاحب المزرعة نفسه للتمويه، فلبس ثيابه ليذهب إلى بيتهم في المالكي، مودعا زوجته وأولاده وقال: له أبوه:

أمك تمر في حالة غيبوبة، يعقبها صحو وفي كل مرة تطلب رؤيتك

ودخلا غرفتها، فأصابها صحو مفاجئ، وهبط عليها من عاطفتها عزم وصحة ونادت بصوت أجهشه البكاء.

الحمد لله الذي حقق رغبتي برؤيتك قبل أن أموت

فعانقها وهو يبكي تأثراً، وانسالت كلماته من بين الدموع

ليقول:

- ستعيشين يا أمي طويلاً بيننا، وستسعد معك بالحب والرضا.

لقد أزفت ساعة الرحيل، ولابد من المغادرة.

ومازال يحدثها ويلاطفها حتى نامت، وظل بقربها الليل بكامله، تغيب وتصحو وكان سكرات الموت تتفشاها.

وقال له أبوه:

سأوصلك بالسيارة إلى يعفور لتقعد مع أولادك بعض

الوقت وأعود بك ليلاً.

واجتمع مع ولديه ثانية، وسألهم عن هواياتهما ورأيهما في السياسة والأحزاب، فقال: كفاح

هو حزب واحد كبير، يقود الدولة والمجتمع، تشترك معه بعض الأحزاب في جبهة، سميت الجبهة التقدمية. أنا وأخي لم تنتم إلى أي حزب

- ما موقفكما من الدين، أقصد هل أنتما متزمتان بدرجة كبيرة

تصوم وتصلي وتتبع الوصايا، لكن ما المقصود بالتزمت؟

التعصب الذي يذهب العقل، ويقضي على المحاكمة الموضوعية.

قال كفاح:

اعتقد أننا لم تصل هذه المرحلة من الغلو، ولن نصل

هل لكما مرجعيات دينية.

ليس في الإسلام لاهوت أو ناسوت، فالمرجعية هي كتاب الله، وضمير الإنسان

علم أن ولديه من حسن الحظ مبصرين، ولم يجدا من يجرهما إلى تيارات دينية عمياء متطرفة، فيفقدا نعمة المحاكمة والعقل

وقال ثائر:

إن اهتمامات جيلنا أكثرها بالكمبيوتر، ومواقع التواصل الاجتماعي، ومنها نستوحي الأفكار والآراء. وأما مجال المنافسة والحراك الاجتماعي، فيتجلى بين فريقي كرة

القدم، في كل بلدة أو مدينة ناديان متنافسان و متنافران، يقتسمان الناس كانهما حزبان سياسيان متنافسان كان ذلك مدروس، لأن التنافس الرياضي، حل محل التنافس السياسي.

قال ياسر:

تقولان: إنكما تستقيان أفكاركما من مواقع التواصل الاجتماعي، هذه المواقع يديرها أناس غرباء، لهم مصالح ومطامع يدسون السم في الدسم، عليكما الحذر 1 فليس كل ما يلمع ذهباً، وقد تستغل أطراف، هذه المنابر لتوجيه الجيل أو تحريضه لنسفه أو تمزيقه أو يستغلون الدين وسيلة جذب لتنظيمات متطرفة.

قال له ثائر:

ضمنه. ليس من داع للقلق. وجيلنا قد مشى مع هذا التيار، ونحن من

وبعد ثلاثة أيام، توفيت أمه، بحضوره راضية مرضية، وقال: له أبوه

ليس من الحكمة حضورك مراسم الدفن

بل سأحضر ولو كان وراء ذلك حبل المشنقة.

وشاور ياسر أبا أرز قبيل الدفن بساعات مؤكداً له قراره بحضوره دفن امه فقال: له أبو أرز

لنستطلع المقبرة، وتعرف المداخل والمخارج.

وذهبا إلى مقبرة باب الصغير، كان لها باباً رئيساً من الجهة الغربية وحيداً، لكن أبا أرز اكتشف أيضاً جداراً واطئاً لسورها الشرقي، يمكن القفز منه بسهولة إلى الجهة الشرقية، حيث الطريق العام المؤدي إلى الأوتستراد الدولي، الذي يوصل إلى يبرود.

وشاهدا أيضاً القبر المحفور، وهو المثوى الأخير لجسد أمه قريباً من السور الواطئ المؤدي لجهة المقبرة الشرقية، فقال: أبو أرز لياسر

أثناء الدفن، سأكون أنا في الجهة الشرقية مع سيارتي وإذا حدث مكروه أو اشتبهت بشيء تتسلل أنت إلى الجدار الواطئ، وتقفز من فوقه فتجد نفسك في سيارتي، ويمكن ساعتها أن نهرب بسهولة. سوف تظل مرتدياً لباس الشيخ، فيظن الحاضرون والمشيعون أنك مقرئ، ولا تظهر الحزن الزائد، أو تتكلم بانفعال، فلابد أن يكون بين الجمع، عناصر من الأمن والمخابرات بلباس مدني، وكأنهم يحضرون التشييع كاحد المعارف، وضع نظارة سوداء على عينيك حتى لا يعرفك أحد. ويفضل أن يكون بيدك عكازاً، ليظن الناس أنك مقرئ أعمى.

وخرجت الجنازة من البيت، مع جمع غفير محفوفة بأكاليل الورد، ووصل الجمع إلى المقبرة، وتوزعوا حول القبر المحفور، وظن

الناس ياسراً أحد الشيوخ المقرئين، ولم ينس عكازه ونظارته السوداء، كما أشار أبو أرز، وأثناء إنزال جثمان أمه من تأبوتها إلى القبر، تأثر ياسر وفقد اتزانه، وقال: بصوت مسموع

- كنت خير أم ! بل كنت الملاك الذي افتقدته إلى الأبد.

وكان من بين الحضور، مخبر تنحى جانباً واتصل بإدارته

قائلاً:

أظن أن ابنها ياسر المحكوم بالإعدام متخفياً بلباس شيخ يحمل عكازاً ويضع نظارة سوداء للتمويه.

وتحركت مفرزة من الأمن السياسي، بسيارة كبيرة، مرت من أمام أبي أرز، متجهة للباب الغربي للمقبرة، وأدرك أبو أرز أن المقبرة ستطوق، وأن للدقائق والثواني أهمية بالغة في النجاة فتسور المقبرة من جهة الشرق، ووصل إلى مكان ياسر.

وقال له :

تعال يا مولانا المفتي يريدك في الحال.

فهم ياسر اللغز وأسرعا بالهرب متسللين بين القبور. ومن حسن الحظ، أن الجهة الشرقية، كأنت قريبة من مكان الدفن، فقفزا الحائط الواطئ، وبثوان كانا ضمن السيارة، التي تحركت بسرعة البرق إلى الأوتستراد الدولي، ومنه إلى يبرود.

وتسلل عناصر المفرزة إلى المقبرة، ظانين أنهم سيفاجئونه ويقبضون

عليه، وصاروا بين المشيعين يبحثون عنه. قسم آخر طوق المقبرة من الخارج، وضاع بحثهم عنه سدى، لأنه كان الأسرع والأصحى وكل ذلك يفضل أبي أرز، الذي كان داهية واسرع من الجن

وقال له ياسر:

بفضلك يا أبا أرز نجوت ولولا براعتك، لكان حبل

المشتقة، قد لوى عنقي

الفضل كله الله، ولا منة لي عليك

وفي الطريق كان أبو أرز يعزيه، ويقص عليه أحاديث مغزاها : أن الناس كلهم مغادرون

وقال لأبي أرز:

لقد حزنت لموت أمي كثيراً، ولكن الذي أحزنني أكثر تغير حال زوجتي، ورفضها المجيء معي إلى لبنان، وتمسكها بوظيفتها ومنصبها، رغم أن ولدي، يحبذان الحضور معي.

قال أبو أرز:

عليك أن تبدأ حياتك العاطفية في لبنان من جديد. وأن تتوقع من النساء كل شيء.

إن عاطفتي الحقيقية هي لولدي، ولا يمكن لأي عاطفة

أخرى، أن تطفى على ذلك.

أبوك سيرعى ولديك ليخرجا إلى الحياة، ويبدأ مشوارهما.

وستبقى وحيداً إذا لم تبدأ حياتك من جديد في لبنان على كافة الصعد لا تدع الوقت يسرقك، كما سرقني، أبحث عن مستقبلك منفرداً.

أخبرني كيف ذلك؟

- كان لي فيما مضى زوجة جميلة أحببتها، وفي يوم وبسبب انشغالي المتكرر في الوظيفة، أحبت داعرا وهربت معه كأنت الخيانة قاسية ومدمرة، الأقسى خيانة أحد أصدقائي، الذي كتب زوراً وافتراء بحقي تقريراً، يفيد أنني أنتمي لحزب، هو الحزب الحاكم في العراق، وأنني أحب ذلك الدكتاتور. وكان كل ذلك افتراء وتلفيقاً ليستلم المنصب الذي كنت أشغله، على أثرها، سرحت من الوظيفة، وعملت سائقاً، وقد كان ينتظرني مستقبل لامع. لقد تجرعت الخيانة المزدوجة، إننا نعيش في عصر الخيانة.

- هل أنت من الحزب اليميني الذي يحكم العراق الآن؟

هي أسماء سموها، ما أنزل الله بها من سلطان: الآخرون

يسمون هؤلاء بالتحريفيين، أو الانشقاقيين، مثلما جرى لحزبكم بفعل يونس الخوخة، أنا لم أنتم لحزب، أحيانا تبدي رأيا أمام صديق، هو في حقيقته عدو مبطن، يجبرك بالسؤال على اتخاذ موقف من واقع يجري، أنت تقول قناعتك في ذلك الأمر، يجيره ضدك، ويدبج بحقك التقارير ويصفك بأنك ضد السلطة الحاكمة أو ضد حلفائها، وبجرة قلم تفقد وظيفتك ووسيلة عيشك

إن ما تقوله صحيح، وتصريحك بذاك الرأي يجب الا يكون

مستمسكا عليك، وإلا يتخذ ذريعة لتسريحك، وإخراجك من وظيفتك

ووصلا بيروت.. والتقى الشيخ حامد الأغير، وسلمه الثياب التي استمارها ، وحكى له ما جرى معه، فعزاه الشيخ، وشد على يديه مهنئاً بنجاته وقال:

لا تدع الحزن يؤثر على عملك، ومهما حدث في حياتك.

ومهما بدت الأشياء قائمة مزعجة، فلا تدخل ربوع الياس، حتى ولو ظلت جميع الأبواب موصدة. عليك بالصبر، لكن الصبر، لا يعني أن تتحمل المصاعب سلباً، بل يعني أن تكون بعيد النظر، بحيث تثق بالنتيجة النهائية، التي ستتمخض عن أهدافك البعيدة.

ماذا يعني الصبر؟ إنه يعني أن تنظر إلى الشوكة وترى الوردة، أن تنظر إلى الليل وترى الفجر، أما نفاذ الصبر فيعني أن تكون قصير النظر، فالهلال يحتاج وقنا ليصبح بدراً.

بعد ذلك ذهب إلى البنسيون، والتقى بجورجيت التي عانقته

وبكت وقالت:

ساكون لك أماً، وأعوضك عن حنان الأم.

وغادر أبو أرز النزل حزيناً، بعد أن نبش ذكرياته المؤلمة، بينما جلس هو مع جورجيت، يقص لها ما حدث معه.

خيم الحزن الشديد على الفيلا في المالكي، وحزن أبوه على موت زوجته فاطمة حزناً شديداً، فأهمل أعماله، وترك تجارته

ووكل ابنه زهير في إدارتها والتصرف بها، واضطر إلى أن يحرر له توكيلاً عاماً في كل ذلك، وقد أعلم ياسر بالأمر، فحذره من ابنه زهير، وفساده وعلاقته المشبوهة مع ابن يونس الخوخة، وظن الأب أن سبب هذا التحذير هو غيرة الإخوة، فلم يعر الأمر كبير اهتمام، وضم أبو ياسر الحفيدين الشابين إلى بيته، فصارا كل اهتمامه، ومن خلالهما صار ينسى حزنه، وكأنت أمهما أغلب الوقت، مشغولة بمنصبها الجديد، فأهملتهما إهمالاً شديداً، تاركة التوجيه والعناية للجد وسلمت الدار المستاجرة في الروضة إلى مالكها، وكأنت في أحيان كثيرة، تنام في بيت أهلها ، خاصة إذا تأخر وقت الاجتماعات والسهر، وصارت تتصرف كما لو أنها بدون زوج، أو مسؤولية أو أولاد.

مرة قال: لها رئيس مجلس إدارة المحافظة ويدعى سيزار السيرووني

- إن سمعة زوجك السياسية، قد أساءت لمستقبلك، وفرملت انطلاقك، فميوله اليسارية المكروهة من الحكومة، تقف عائقاً أمام طموحك.

ولكن لا تزر وازرة وزر أخرى

هذا في الشرع والدين، وعند رب العالمين. أما عند الأمن فمن كان أبوه مكروهاً أو مخالفاً في مبدئه ومنطلقاته للدولة فهو محروم من الوظيفة والمنصب، ومن كان زوجه سجيناً سياسياً، حامت حوله الشبهات وهمش.

قالت:

ما الحل برأيك لتجاوز هذه المشكلة ؟

من حقك أن تتمتعي بالحياة، وأنت صبية جميلة، وذات منصب ومال، وفي نفس الوقت امرأة مهجورة منذ عشر سنوات، وقد أعطاك القانون حق طلب التفريق، فلماذا لا تستخدمي حقك هذا؟

في هذه الحالة أخسر ولدي.

لا لن يكون ذلك، فهم الآن تحت رعاية جدهم وإشرافه وسياتي اليوم الذي فيه يكبران ويتزوجان ويتركانك، فتصبحين وحيدة وتقدمين الفرص تأتي مرة واحدة، والزمن لا ينتظر. وبإمكانك أن تتدرجي في المناصب، فتصبحين وزيرة.

ولعب الحلم بالمنصب دوراً هاماً في تغييرها وانحرافها، فأهملت الاتصال بياسر، ولاحظ هذا التغيير، وكلما اتصل بها ، رد عليه ولداه، بأنها خارج البيت، أما الخليوي خاصتها، فهو خارج التغطية دوماً، وقد وقع هذا الأمر في نفسه موقعاً مؤلماً، وعرف أنها سارت في طريق التغيير الذي سيؤدي إلى ما لابد منه، وقد لاحظ بداية تغيرها، عندما رفضت الذهاب معه إلى بيروت، في الوقت الذي رغب فيه ولداه بالذهاب معه.

في هذه الأثناء، كان البساط يسحب من تحت رجلي والده وفق خطة جهنمية مدروسة، فقد عمل زهير بجد ونشاط للاستيلاء

على الثروة والأرض والعقارات بكاملها، وقرر الا يدع له قرشاً واحداً، كما قرر أيضا انه في نهاية المطاف سيرميه في دار العجزة التي سميت بدار السعادة ونقل الأموال كلها إلى ذمته مستعينا بالوكالة العامة الممنوحة له من أبيه، وكل ذلك بتخطيط من يونس الخوخة وابنه الذي غدا من أصحاب المليارات، وقد تمتنت بينهما العلاقات، لدرجة أدت بزهير أن يطلق زوجته نعيمة ويتزوج من ابنة يونس الخوخة ازدهار، بدون علم أبيه، وقد أوقعت ازدهار زهيرا بحبها بتخطيط محكم من أبيها نفسه. وكأنت خطة يونس وابنه أن يبيع زهير، كل أملاك أبيه، ليحولها إلى عملة صعبة من أجل مشاريع كبيرة في رومانيا ، وبعدها يترك سوريا نهائياً، وقد أسفرت أنتخابات حزب يونس، إلى سقوطه، وتولي نائبه قيادة الحزب، وهذا ما كان يريده يونس الخوخة، لأنه

قرر الهجرة، والبدء بتكوين شركة قابضة في رومانيا.

أما بالنسبة لياسر؛ فقد استمر في حزنه على أمه شهراً، ثم وجد أن الحزن، لا يغير من الواقع شيئاً، وأن العمل الممنهج، ضروري لاستمرار الحياة ونجاحها، فأنهى في هذه المرحلة كتابه الجديد (لقاء الحضارات). وفيه يرد على كتاب صراع الحضارات لمؤلفه صامويل هنتنجتون، الذي طرح فكرة صراع الأديان واقتتالها ، بعد سقوط الشيوعية، وأن عدو أمريكا والغرب هو عدو جديد؛ إنه الإسلام، ففي السياسة لابد من وجود عدو، وقد بين ياسر في كتابه المزمع نشره، أن الإسلام الحقيقي دعا إلى المحبة والتعارف

بين الشعوب، كما أن الحضارة المسيحية هي بالأساس حضارة شرقية، نادت بالمحبة بين الأمم، ولا تعارض في الفكر بينها وبين الإسلام، والإسلام جاء ليكمل ولم يأت لينقض.

وكان ياسر يناقش الشيخ حامد الأغبر في ذلك، ويستلهم منه النصوص، كما تطرق مع مدام جورجيت إلى النقاش حول الفكرة ذاتها فكأنت تشجعه، ولمس منها ثقافة واسعة، لقد ساعده وجوده في المكتبة في تأمين المراجع وكتابة النصوص.

وفي يوم دخل ابن صاحب المكتبة، وعليه آثار الحزن وقال:

لقد توفي والدنا وسنتوقف عن البيع، ونغلقها حتى تتم تصفية تركته، فأعطني المفتاح وخذ حسابك.

كان الأمر مفاجئاً ومحزناً، في الوقت نفسه لياسر، ففي هذه المكتبة الواسعة الضخمة الكبيرة، أمضى أجمل أوقاته وأحلاها.

وعاش بين الكتب التي أحبها منذ مراهقته، حمل جاكيته وخرج للمرة الأخيرة ولم يعد. وعندما حكى للشيخ حامد الأغبر القصة قال: له الشيخ:

لقد علمت بالأمر وأسفت لموته، كان مثقفاً تقياً لكن أولاده فاسقون فاسدون، إنهم يريدون تحويل المكتبة إلى كازينو وماخور، لأن ذلك يدر عليهم مالاً وفيراً، ونصحه بنشر كتابه على الفور.

وذهب في اليوم التالي، حاملاً المخطوط إلى (دار النشر

الحديثة)، وقابل مدير الدار، الذي أخذ منه المخطوط لدراسته وتقييمه والوقوف على مدى صلاحيته للنشر، وطلب منه العودة إليه بعد أسبوع، ولما مضى الأسبوع، والتقى بالمدير قال له :

لا استطيع نشر الكتاب

لماذا ؟ !

هذا النوع من الكتابات غير مرغوب فيها، وهذا الجيل يريد القصص العاطفية المغرية والسطحية، أكثر مما يريد الكتب الفكرية. إنك ترى كم يتهافت الناس على الفاست فود) أي الأطعمة السريعة، مع أنها مضرة صحياً، ويرغبون عن الأطعمة الصحية المتوازنة، مع أنها مفيدة، هذا ينطبق على الكتب.

- ولكن للكتب الفكرية قراؤها.

هم قلة قليلة، ونحن نعمل بميزان التجارة.

وكان في المكتب صحفي يسمع الحوار، وينصت للقول، يدعى نزيه الأبيض، يعمل في صحيفة (انبلاج الفجر) وهو كاتب معروف وناقد سياسي لاذع، فعندما خرج ياسر حزيناً منكسراً من مكتب المدير تبعه الصحفي نزيه إلى الشارع، وطلب منه التريث، ووقفا على الرصيف وقال: له :

- استاذ ياسر، كتابك رائع وذو مضمون جيد، وقد أطلعني عليه مدير الدار، ونصحته بنشره، لكنه رفض للأسباب التي ذكرها لك، وسينشر كتابك في يوم من الأيام. لا تيأس، نسيت

أن أعرفك بنفسي :

انا نزيه الأبيض، أعمل في صحيفة انبلاج الفجر)، وهذه بطاقتي وفيها ارقامي، أرجو أن تلتقي ثانية في مكاتب الجريدة، اتصل بي عندما تشاء.

والتقى به بعد أسابيع، فقدمه إلى المدير العام للصحيفة أنطون شركس، وجرى نقاش وحوار حول الكتاب، وقال: المدير العام:

ربما تنشر الكتاب، في مطابع الجريدة بعد شهور، ولكنني أعرض عليك الآن وظيفة محرر في صحيفتنا.

وقبل ياسر الوظيفة الجديدة. وداوم في مكتب تشاركه فيه موظفة، هي أيضاً تكتب المقال:ات السياسية بإتقان وبراعة، عرف فيما بعد أنها تدعى جويل الناصوري امرأة في الأربعين جميلة وانيقة، تحمل في عينيها حزناً، حائزة على دكتوراه في الاقتصاد السياسي من موسكو، وقراؤها ينتظرون مقال:اتها الأسبوعية بشغف واهتمام، وكان مالك الصحيفة أنطون شركس، قد قدمه لها

وأوصاها به، فأصبحا يعملان في المكتب نفسه. وعندما بدأ ياسر بنشر أول مقال:ة له في الصحيفة، حاز على إعجابها وإعجاب المدير

العام أنطون شركس، وصار له مقال:ان سياسيان في الأسبوع.

واضاف انطون شركس

لا توغل كثيراً في نقد الحكومات المجاورة، لأن منها من يمولنا، ومنها من يقتلنا، وضحك

كأنت الدكتورة جويل الناصوري متزوجة من محرر وكاتب جرى هو مهيار الأسعد كان يكتب نقداً لاذعاً ويكشف الخيارا والأخطاء، لبعض حكومات الجوار الإقليمي، وقد لقي حتفه بقنبلة وضعت بسيارته وانفجرت عند تشغيل محرك السيارة. ولم يعرف على وجه التحديد من الفاعل ؟ (وكل جهة ترمى بالشك نحو أعدائها وتتهمهم

واستمر ياسر في العمل بالجريدة شهوراً عديدة. وقد طالب بنشر كتابه على مطابع الجريدة، كما وعد مديرها، فتم له ذلك. ولاقى الكتاب رواجاً شديداً، عكس ما توقع له صاحب دار النشر الحديث، وأنتشر الكتاب وصار لياسر صيت وشهرة وكون ياسر من مبيعات كتابه، ثروة لا بأس بها ، لأن الكتاب في بيروت ترجم إلى عدة لغات، فاشترى سيارة و داراً . مستقلة في : الغربية، وترك غرفته في البنسيون، لكنه كان يزور مدام جورجيت بين فترة وأخرى خاصة حينما يكون بحاجة للحنان وكان يحدثها عن جويل بعين الإعجاب، ولاحظت هي تغير تعابيره

وتألق عينيه عند الحديث عنها، فقالت له :

أنت تحبها، وستظهر الأيام صحة نبوءتي

يومها، أجابها :

إنه مجرد إعجاب واحترام لثقافتها وعملها ، وربما إشفاق على مأساتها. لكن الأيام أظهرت صحة توقع مدام جورجيت.

(١١)

غاب ياسر عن مدام جورجيت أكثر من عشرين يوماً، ولم يكن من عادته أن يفعل ذلك السبب أن أحداثاً مأساوية مؤلمة حدثت، وفاجأت الجميع، إنها نزول قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة إلى أرض العراق، واحتلاله بعد تمهيد صاروخي وجوي فظيع.

دمار لا مثيل له في العصر الحديث، حتى قيل إن ما سقط على العراق خلال أيام من قنابل وصواريخ ومقذوفات مدفعية ثقيلة يفوق ما ألقي في الحرب العالمية الثانية على العالم كله، خلال سنوات الحرب تلك. ومنذ منتصف آذار من عام ٢٠٠٣، والتمهيد والتشويش والتدمير قائم بدون توقف وما يزال مستمراً، حتى قيل إنه قد قتل في هذه الحرب من الأطفال والنساء والرجال، ما ينوف على المليون والنصف، إن لم يكن أكثر، إضافة إلى قيام المحتلين الذين يدعون الإنسانية، ويرفعون شعارات الحرية، بممارسة التعذيب الممنهج، واغتصاب النساء والرجال في السجون. خاصة في

سجن أبو غريب، حيث كان السجناء يجرون من رقابهم بالحبال كالحيوانات، ويمارسون عليهم إضافة إلى التنكيل، كل أنواع الإذلال تغوطوا وبالوا على رجال، كانوا في يوم من الأيام مسؤولين، وأساتذة جامعات، وشيوخاً وذوي أسر ناهضة وواعدة. واثبت الغزاة - الذين يدعون الحضارة، ويبشرون بها، ويرفعون في بلادهم شعلة الحرية، ويدعون أنهم حماتها وناشروها - أنهم أبعد ما يكونون عن الحضارة والحرية، بل إنهم تجار حروب وقتلة أطفال، ومغتصبون

لقد دفع اللوبي اليهودي، ولوبي رجال الأعمال في أمريكا طفاة سموا بدعاة الصهيونية المسيحية، أو المسيحية المتصهينة وكان على رأسهم بوش الابن إلى فتح أبواب الجحيم على شعوب آمنة مسالمة مبتدئين بتدمير العراق، وبمراحل لاحقة تدمير دول المنطقة كلها. وصرحت وزيرة خارجية بوش كونداليزا رايز

إن علينا إيجاد فوضى خلاقة في منطقة الشرق الأوسط، من أجل قيام شرق أوسط جديد مختلف. وكأنت تقصد من ذلك تفتيت المنطقة وتجزئتها طائفياً، لتقتتل فيما بينها وتضعف، ولتغدو إسرائيل سيدة المنطقة والمهيمنة عليها. وتعاقدت القوات المعتدية مع شركة أمنية تدعى (بلاك ووتر) : أي المياه القذرة، وهي تشكيل بمعظمه صهيوني ومرتزقة، تعاقدوا مع التحالف، لقتل النساء والأطفال والرجال بلا استثناء، وخاصة العلماء والأكاديميين، وقد قتل من العلماء العراقيين، أكثر من خمسة آلاف عالم، وسرقت المتاحف، ونهب النفط وتواترت الأنباء بأن (بول بريمر) وهو الحاكم العسكري الأمريكي للعراق، قد نهب خمسة مليارات دولار وحده

كل هذه الأحداث شغلت ياسر عن مدام جورجيت، وها هو اليوم يزورها ، فتلقته بالعناق قائلة:

لقد اشتقت لك يا بني، لما طالت غيبتك؟ منذ تركت الدار، وعدتني بالعودة واللقاء والزيارات، لكن الآن طال غيابك وكنت أراك في كل يوم، وأسعد بك.

- الأحداث الدراماتيكية التي اجتاحت المنطقة شغلتنا جميعاً وكنت في الجريدة أداوم ساعات وساعات للتعليق على أخبار الحرب، فاعتذر منك عن هذا الغياب.

معك كل الحق، فالأحداث التي جرت قد زلزلت كياننا ، وبرهنت مجدداً بأن الإمبريالية والاستعمار، أعلى مراحل الرأسمالية كما كنت تقول لي، وأن صراع الحضارات يطبق الآن بفظاعة في أرض الحضارات

لقد سرقوا المتاحف، وأنتهكوا أعراض النساء، وسرقوا أموال شعب عانى ما عانى عبر التاريخ الطويل، حتى اتسم غناؤه بالحزن، وفرحه يشوبه لحن الحزن والتلذذ عبر حياته بالألم وذكرى الفواجع. إن على سوريا الكبرى، أن تتوحد لتكون منارة

الشرق الأوسط ولتشع كما كأنت، حضارة وإبداعا على العالم. لأن سوريا فوق الجميع، ولو كأنت موحدة لما حدث ذلك، وعليها قيادة العالم نحو عدالة وأخلاق مفتقدتين الآن في السياسة الدولية.

إن ما تحلمين ويحلم به كثيرون يحاولون تدميره الآن، وإن العراق الذي صار له شيء من القوة، وظهر فيه علماء، أصبحيؤرقهم فاجتاحوه

إرادة الشعوب أقوى من المعتدين.

ثم أردفت مغيرة مجرى الحديث

على فكرة قبل أن أنسى، فإن تغريد وابنتها جمانة، التي كثيت بندي الصباح، وغنت في كازينو الموج العاني، هي الآن في البنسيون

استغرب ياسر الخبر وقال:

- سمعت أنها تعيش في منزل فخم مع أمها وقد تزوجت من مزيد الخشن، الذي لقب نفسه متخفياً باسم نمر أبو البارود

وأطلق شاربه للأعلى. هل هو معهما ؟

أووه (يا إلهي كيف أسرب لك خير المأساة حتى لا تصدم ؟ ! لقد حدثت فاجعة يا ياسر لن تصدقها، مات صديقك مزيد الخشن بل قتل أشنع قتلة، لقد غاصت زجاجة الويسكي المكسور قعرها في رقبته وقطعت كل شرايينها ، ذلك أن

مجرماً سكيراً أغرم بجمانة ؛ أي ندى الصباح، وطلب منها أن تجلس إلى طاولته، أو تغادر معه إلى شقته، وكان مزيد الخشن زوجها وحارسها، يسمع ويرى، وعندما وقف مدافعاً عنها، غارت الزجاجة المكسورة في عنقه، فمات على الفور، وسال دمه على الأرض، وأخذت الماساة شكلاً أفظع، عندما فتح السكير المجرم مطواة أخرجها من جيبه، وتناول وجه ندى الصباح تجريحاً وتشطيباً، لأنها دافعت عن مزيد، الذي لتوه ذبح. وكادت تموت لولا أن أسعفت إلى مشفى قريب، وأجريت لها العديد من العمليات

ولكنها شوهت بطريقة لا يصدقها عقل، وقد هرب الحضور والمغنون، ولم يستطيعوا الإمساك بالمجرم.

ذهل ياسر مما سمع صدمته الماساة، وظل صامتاً وقتاً طويلاً ومطرقا، حتى أن المدام جورجيت قال:ت له :

ياسر أين أنت؟ ماذا جرى لك؟ صحيح أن الموقف صعب

وأن مزيد رفيقك السابق، لكن علينا أن نتحمل بقوة مفاجآت الدهر.

أنتبه لنفسه التي غابت في غياهب حزن عميق دفين ومفاجئ

فسألها :

وجثة مزيد أين هي الآن؟

دفنوه في مقبرة بيروت الغربية، وقال:ت تغريد : بأنهم عملوا له قبراً لائقاً من الرخام.

هل مات على أنه مزيد الخشن، أم نمر أبو البارود؟

لا مات بشخصيته الحقيقية، ووفوه حسب الأصول، لأنهم خافوا أن يكتشف التزوير، هذا أولاً: وثانياً، لأنهم ظلوا - أو هو حدثهم مفاخراً، وربما لا يكون ذلك حقيقة - أن عنده في بلده، ثروة طائلة من الأراضي والعقارات، ورثها عن أهله، وعلمت أيضاً

أنهما متزوجان بعقد رسمي وليس عرفياً، ربما كان في البداية عرفيا ثم تم تثبيته، مما جعلها تطالب بحصتها من التركة.

- حبذا لو اجتمعت بهما ، لأعرف مزيداً من الحقائق، هل هما في غرفتهما بالبنسيون الآن؟

نعم لم تعودا تغادران الغرفة، حتى أنهما تتناولان الطعام فيها ، وقد تركتا تلك الدار المستأجرة توفيرا للمصاريف، كما طلبتا مني لقاءك والاجتماع بك، ولما سألتهما عن السبب قال:ت الأم تغريد

- ليدلنا على أملاك المرحوم، فنحصي تركته ونرثه.

سأخبرهما الآن بحضورك، واتجهت إلى غرفتهما.

كان تعجب ياسر أكبر من صدمته، صدم بالقطاعات التي ارتكبت، وتفاجأ بموت رفيقه بالشكل الدراماتيكي الذي حصل، لكن عجبه كان من وقاحة الأم وابنتها، في البحث عن تركة الرجل غادر بحالة مأساوية مدافعاً عنهما.

وأخبرت مدام جورجيت تغريد وابنتها جمانة، بوجود ياسر في

شقتها، فحضرتا على الفور. كأنت جمانة تضع خماراً على وجهها، لا يكاد يكشف سوى جزء من عين واحدة، وكأنت الأم ترتدي في هذه المرة لباساً محتشماً، مع غطاء رأس تركته، ثم عادت إليه. لم تكن متانقة متبرجة سافرة، مثلما كأنت في المكتبة، يوم كأنت تتأبط ذراع مسيو برهان ذلك المخرج القواد.

عندما وصلا إليه، صافحهما معزياً حزيناً، بيرود شابه اشمئزاز. ذلك أنهما كأنتا السبب في موت رفيقه مزيد، الذي حاد عن جادة الصواب، وخان مبادئه، ولكنه على كل حال؛ يظل رفيقاً قديماً، شاركه الخبز والملح والنضال، تشاركا في الحلوة والمرة، وعاشا أسوأ اللحظات وأخطرها، وتبقى ذكراه في القلب غالية.

أشارت إليهما مدام جورجيت بالجلوس، فجلسنا قبالة ياسر وأمامهما الحديقة الخلفية.

قال ياسر:

كيف حدثت المأساة المروعة ؟

روت الأم تغريد الأحداث، كما سمعها من مدام جورجيت وإن

بتفصيل أكبر.

منذ متى حدث ذلك؟

منذ أكثر من شهر.

- هل أخبرتم أهله؟

- لا نعلم عنهم شيئاً، كان المرحوم يحدثنا عن عقارات يملكها وثروات له، مازالت موجودة في سوريا. لقد صنعنا له قبراً رخامياً لائقاً، واشترينا له تأبوتاً من خشب الجوز الأنيق.

والله فيكم الخير (قال:ها ساخراً).

الآن نريد يا مسيو ياسر أن نعرف أملاكه وعقاراته ومقدار ثروته في سوريا، فأنت رفيقه، وابنتي الآن بحاجة ماسة إلى ميراثها من المرحوم، وقد قطع رزقها من الغناء، ولم يعد لنا مورد. والمخرج برهان 1 الذي وعدك بدور سينمائي ما أخباره؟ هل

مثلت الدور ؟ !

ارتبكت وقالت:

أووه ا ما تزال تذكره؟ لقد توارى ولم يعد يرد على هاتفي. علمت فيما بعد أنه قواد كاذب وندمت على صداقتي له. حاول أن يقدمني لأحد المهووسين بالجنس، ولكني نفدت بريشي سالمة منهما. على كل كأنت أيامي معه قليلة، لا تدرك يا مسيو ياسر فظاعة حالنا الآن لأننا في ضائقة مادية، فعملية ترقيع وجه جمانة

قد كلفنا الكثير.

قال ياسر:

- هل بإمكاني أن أرى وجه جمانة، لأطلع على الضرر الذي

حصل لها ؟

ترددت في البدء جمانة، وتحت إصرار أمها كشفت عن وجهها.

يا للمفاجأة المخيفة بل يا للهول (كان وجهاً مخيفاً، بدرجة لا تصدق التشويه تم بقسوة وبيد حاقدة، ويمتد التشويه من الذقن حتى المين، وظهرت عينها اليسرى جاحظة مخيفة، لكنها سليمة.

يا ستر الله : إن ذلك فظيع !

أطرق ياسر ببصره إلى الأرض حزيناً متفكراً، ثم قال:

أريد منكما أن تذهبا معي إلى المقبرة، لأتعرف إلى قبره

قالت مدام جورجيت

وانا سأذهب معكم

ركين بسيارته، وانطلق إلى المقبرة، ترجلوا جميعاً من السيارة ومشوا بين القبور، تجلى الصمت الأبدي مهيباً، المقبرة مقفرة إلا من أعواد الريحان اليابس، لكنه مازال محتفظا ببعض الاخضرار، تهتز عيدانه فوق القبور، بفعل نسمات واهنة، وأشارتا إلى قبره، وقال:ت تغريد

هذا قبر المرحوم مزيد، إنه يرقد تحت الأرض في التأبوت مرتاحا بسلام

كان القبر الرخامي ناهضاً فخماً، يقوم على قاعدة من رخام أبيض، وحوض علوي، مع شاهدة كتب عليها : الشهيد مزيد الخشن تاريخ ميلاده ووفاته

قالت الأم تغريد:

كما ترى القبر فخم ضخم، وقد كلفنا الشيء الفلاني

لم ينتبه ياسر لقولها ، لأنه كان متأثراً بالمشهد برمته، رفيقه مزيد الذي ناضل معه، وانحرف كأسوأ ما يكون الانحراف يرقد الآن تحت الرخام، وبين التراب اللزج، وقد بدأت الهوام الأرضية احتفالها بقدومه إنه احتفال الرغام، والهوام بوجبة طازجة. يا لنهاية الإنسان المحزنة !

وعادت تغريد، لتسأله من جديد

هل كان المرحوم، يملك الكثير من العقارات والثروات كما كان يقول لنا؟

خرج عن طوره هذه المرة وقال:

أنت امرأة لا تستحي ! ولا تعرف للموت حرمة، أو رهبة أو احتراماً : إن مزيد لم يكن يملك في كل حياته سوى دراجة هوائية

عتيقة، هي الآن في بيته الطيني بريف دمشق.

ذهب ياسر إلى بيته في أسوأ حالاته النفسية وهيجاناته الأليمة المت به هستيريا تشبه الجنون، أغلق نوافذه، وراح يجتر في العتمة كل ذكرياته مع مزيد وهاجت به الذكرى، واشتعل الحنين في صدره غضب على مزيد، لأنه انحرف وخان، وأخذ يجهش في البكاء، لا يذهب بالهيجان مثل فعل مبدع قريب من جنون.

فجاة استوى على كرسيه، وأضاء مصباحاً صغيراً، وأخرج قلماً وورقة، ليكتب أول قصيدة في حياته، سماها (مجامر الروث) فكتب:

من تابوته المغمور.

بأوراق السنين.

راحت عناكيه.

تمتص عتمته

وتحتضن الأنين.

يخصي الكلام بجهله

من بعدما أقلت فحولته.

فارتاح من قهر.

وغب من عهر ومن شر.

فزوت فتونته

وافتقد الحنين

يقتات عشب الأس.

كمنزة جبلية.

هزت جدائلها بفعل الربح.

والتجريح.

وابترد الأنين.

يتقيأ الأفكار، بطزاجة التأبوت

معتصراً رطوبته.

يباهي به الماموت.

أو يحنط وجهه فزعاً.

كجهامة اللاهوت.

من مجامره يفوح الروث محترقاً.

فينبجس الظلام.

كقيمة مسمومة مقروحة.

ويحترق الكلام.

متمرغاً في وحله.

للعمق منسرياً، ومنفعلاً.

ويبحث عن رغام.

يخصي العقول بخسة.

ليصطاد الأنام.

لينام في خدر ونهر من سخام.

ويفيق منزعجاً كخفاش

ويدعو للظلام.

فيدوس نور الكون، بروث رغامه.

بمجامر الإعماء، من دخانه

مسودة الجدران في أركانه.

قيمانها من زخرف زائفه

فينحرف الكلام.

بالعهر يحتضن الأنين.

على مر السنين.

مدمراً أقداسه، بمداسه.

ويحتفل الرغام

با قمر تأبوت، غطاؤه وحل.

وظاهره رخام

كان ياسر قد استنفذ كل طاقته الانفعالية، بهجومه على ميت أحبه، لكنه في آخر لقاء أنكره. وهذا شيء من طغيان هيجانه، وكان عتابه الرفيقه الميت قاسياً ومؤلماً. عتابه الصديقه الذي دمر نفسه بدون طائل، وأشعل الروث في مجامره، بدل العود

والبخور، متخلياً عن أحلى أيام النضال، وعن عقيدة طالما دعها إليها، ظناً منهما أن ذلك يؤسس للعدل والمساواة.

لم اندس في سريره، ونام حزيناً.

استيقظ متأخراً، شعر بإحباط وهبوط مربع في همته. عاودته أحداث اليوم السابق فشعر بانقباض، لم تكن لديه رغبة في العمل أو الكتابة، كان بحاجة إلى صديق يبثه همومه وأفكاره، والواعي نفسه، وأول ما تبادر لذهنه، الشيخ حامد الأغبر، عنده تستريحالنفس من عنائها، وتشحن بطاقة روحية خلاقة. لقد مضى زمن طويل ولم يلتق به أخذه العمل وافترسته الأحداث الجسام كأنت الأحداث أكبر من الجميع فسبقتهم رغم اللهاث فكر بالذهاب المسجد التقوى، فنهض متثاقلاً، ولبس ثيابه، وشرب قهوته، وتوجه عند صلاة الظهر إلى مسجد التقوى، ولقي الشيخ، فسلم عليه معتذراً عن طول غيابه عنه، وأبدى بعض الأعذار

قال الشيخ:

لنذهب إلى بيتي، ونتناول غداءنا، ونتباحث في شؤوننا، فلم أعد أجد الصديق الواسع الفهم الغزير الثقافة، الذي يفهمني وافهمه، بينما أجد ذلك عندك

وفي بيت الشيخ حامد جلسا وقدم لهما حقيقة عصير الفاكهة، وذهب لبعد الغداء.

قال ياسر:

رفيقي مزيد الخشن اغتيل بزجاجة مكسورة، غارت في عنقه في ماخور.

حكى له الأحداث، كما روتها جمانة وأمها.

هذا شيء كان متوقعاً، والنتائج كأنت محتملة لكل متبصر، لكن مزيد فقد رشده، وطغى عليه هواه، هو كارثة على الصعيد الشخصي، لكن الكارثة المأساة، هي احتلال العراق، وهذا كارثة عامة. الشعوب العربية نائمة هي وحكامها ، بل ربما خائفة، وحدها سورية التي قالت: لا. ونددت بالعدوان بكل جراء.

لاشك أنك يا مولانا ، قد علمت ما جرى، وما جرى عظيم ! يصعب فهمه ويعسر هضمه. إنه بعيد عن المنطق والإنسانية. لقد احتلت قوات التحالف العراق، بحجة نزع أسلحته التدميرية الشاملة، لكن الوقائع اثبتت عدم وجودها، وأن الحملة العسكرية، قد بنيت على معلومات خاطئة كاذبة، والاحتلال مازال يجثم على أرض العراق، يقتل أبناءه، ويغتال علماءه، ويسرق آثاره وثرواته، وتلتهم آلة القتل كل يوم مئات الأبرياء.

- لا يغرنك الكلام الظاهر، والتسويغ الخادع الذي يروجونه يقولون جاؤوا لنشر الحرية والقضاء على الدكتاتورية، يقولون بأفواههم، ما ليس في قلوبهم. أبحث عما خفي، لأن المخفي أعظم إنها خطة خبيثة، ذات منهج مدروس بعيد المدى، يبدأ اليوم في

العراق، وسيلتهم بلدان المنطقة الواحد تلو الآخر، اليوم يقتل العلماء والباحثون والأكاديميون العراقيون بتخطيط منهجي، والدول العربية والإسلامية، تسكت بذل وحياء بعضها لصمته لمن وبعضها صمته سببه الخوف، ستتذكر يا بني أن سوريا ستحاسب في يوم ما على موقفها هذا، لأنها وقفت ضد الاحتلال.

ماذا يتوجب علينا من عمل، لنصرة أبناء شعبنا؟

- كل في مجاله يعمل ويناضل، أحيانا الكلمة أقوى من الرصاصة. علينا أن تنتبه ونتحلى بذاكرة كالبرق هناك مواقع على الأنترنت، تجند شبابا وفتيانا من سوريا، بحجة أن الجهاد أصبح فرض عين، بعد أن كان فرض كفاية، وهذا الكلام يصح، لو خلت العراق من الرجال، أو كان فيه نقص شديد لهذه الناحية، ولكن العراق مليء بالرجال المستعدين للجهاد العراق الآن بحاجة إلى مواقف سياسية قوية وداعمة، بحاجة إلى سلاحودعم مادي و لوجستي، إن العدو يحشد جنوداً، من عسل مسموم لتدمير أبنائنا الفضائيات المغرضة، والإعلام الممنهج، التابع للقوات المعتدية الغازية، تشوه الحقائق، وتضع السم في الدسم، وقد

شوهوا الجهاد بشكل مقصود، فحولوه إلى حرب السيارات

المفخخة التي يفجرونها في الأسواق والمقاهي وفي المساجد، بواسطة عملائهم، وينسبون ذلك للمقاومين، وشكلوا مليشيات وسموهم مجاهدين، يعملون لصالح الاحتلال في الباطن، وفي الظاهر يزعمون أنهم مقاومون، ويشوهون معنى الجهاد، مسيئين للإسلام

والمعنى الجهاد هناك مجاهدون حقيقيون يقاتلون الغزاة ويوقعون بصفوفهم الخسائر، ولكن ليس بطريقة السيارات المفخخة التي يذهب ضحيتها الأبرياء، بل بالقتال وجها لوجه مع قوات الاحتلال لا ضير لمن أراد الانضمام إليهم عن طيب خاطر إننا ضد

التغرير بالآخرين، عليك أن تنتبه لطفليك، وتوعيهما من هذا الخطر، فالشاب بطبعه متحمس متهور تنقصه الحكمة أحيانا.

إن بالي مشغول يا مولانا ، أبي وولداي وزوجتي، لم يعودوا يتصلون بي، وإذا أنا اتصلت لا يردون علي، وإذا ذهبت إلى سوريا ، اخشى من الشنق.

اصبر قليلا، لابد أن تتوضح الأمور ونعرف الأسباب

(١٢)

قال: رئيس مجلس المحافظة سيزر السيرتوني لنائبته سارين ذات يوم بعد أنتهاء الاجتماع:

- إنني أدعوك اليوم إلى عشاء في مطعم الدهشة، بمنطقة البحصة، سأنتظرك في الثامنة لأدلى إليك بأمر هام يمس مستقبل حياتك.

اليس من الممكن أن تخبرني الآن ما الأمر؟

إن ذلك يحتاج لحديث طويل، ومكان يناسب ذلك الحديث.

وذهبت مساء إلى مطعم الدهشة، فوجدته بأنتظارها. كان قد اختار ركناً منعزلاً، تحيط به النباتات، والمياه المتدفقة من بين الصخور، على شكل شلال ناعم. سلمت وجلست، ثم قالت:

المكان جميل، ارتدته يوما مع ياسر، لقد غيروا كثيراً في الديكور.

إنك تضيعين حياتك بالعمل يا مدام سارين، والزمن ينسل من بين يديك هارباً.

قلت بعد الاجتماع إنك تريد أن تدلى إلى بأمر هام

نمود حقيبة وزارية بأنتظارك أمامها عقبة يمكن إزاحتها. الفرص المدهشة تأتي مرة واحدة في العمر، ثم تغيب فلا

لم أفهم ما تقصد؟

ضابط الأمن المقدم ممدوح سيدلك على العقبة، ويحل لك المعضلة لقد دعانا في الغد للقائه مساء في مزرعته بالغوطة، وطلب

مني إحضارك شخصياً لأمر هام يتعلق بمستقبلك

- إحضاري أنا ؟ ! ولماذا ؟

هم الآن منهمكون في إعداد دراسات عن وزراء جدد، وقد

تكونين أنت أحدهم، فتحصلين على حقيبة وزارية.

لماذا لا يكون اللقاء في مكتبه، أو في مطعم عام؟

هؤلاء يحبون تدبير الأمور في الخفاء، وبسرية تامة، ولا

يحبون أن يظهروا أمام الناس، مع أنهم يقررون مصائر معظم الناس

وأحضر النادل طعاماً، من مختلف الصنوف مع البيرة، وصب

لما كاسين وذهبه

قال سيزر السرؤوني:

. في صحة الوزيرة العتيدة.

أنا لا أشرب المسكر.

. عليك أن تتعودي، فهذا من أصول الإتكيت، وحتى لا

تظهري أيضاً بمظهر المتزمت

وافقته وشربت فكان لازماً، فتناولت قطعة من شرحات

اللحم وقالت:

اجد صعوبة في الذهاب إلى مزرعته ليلاً.

عندما تصبحين وزيرة، ستسهرين في الوزارة لما بعد منتصف الليل، عليك أن تتعودي من الآن.

وشربت الكأس الثالثة، فوافقت على السهر في المزرعة، على ان يكون سيزر معها طيلة الوقت، ففرح وقال: في نفسه :

سيفرح ممدوح وأكون، أنا قد أنجزت المهمة)

في الموعد المحدد، ذهبا إلى المزرعة الكائنة في الغوطة الغربية.

مزرعة فخمة منسقة، تحيط بها الأشجار، وتضم نباتات وأزهار

وفي وسطها فيلا وحوض سباحة.

كان ممدوح، يرتدي لباساً عسكرياً، وقد أعد كل شيء، وفق خطة مرسومة، تعاونه ثلة من عناصره، تقوم على خدمته وحراسته.

استقبلهما عند المسبح، وأجلسهما إلى طاولة فخمة، حوت صنوفاً عديدة من المقبلات والمكسرات، وزجاجتي ويسكي،

وبعد أن جلسوا جميعاً، قال ممدوح:

- أنا سعيد جداً بحضورك يا مدام سارين، شرفت الفيلا.

شكرته، وعلقت على وجهها ابتسامة عرفان وخنوع

وتطرق الحديث إلى مواضيع شتى شملت مشاريع العمل : المحافظة أولا، ثم عن وضع بعض الزملاء وخلفياتهم السياسية انياً، وأخيرا عن أولادها وزوجها المتواري ثم قال:

- إن القيادة تثق بك، وبمؤهلاتك وثقافتك، ونحن نعد الآن دراسات عن الوزراء المحتملين، الذين سيسند إليهم مستقبلاً حقائب وزارية، وقد اقترحتك أنا شخصياً، لتكوني وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل وأخبرت سيزر بذلك ولكن في سيرتك عقبة ربما يستغلها بعض أعضاء لجنة القيادة، والذين بيدهم القرار، فيمنعون عنك هذا المنصب اقصد بالعقبة زوجك ياسر المتوارى

عن الأنظار، والمعارض للدولة ولما سألته عن الحل قال: التفريق بينكما لعلة الغياب، ضرورية للوصول للمنصب

عندها تزول كل العقبات ارتبكت ولم تعرف بم تجيب الكنها وجدت أن أنسب قول هو :

. إن ذلك يستغرق وقتاً.

لن يستغرق ذلك إلا يوماً أو يومين

لم توجه بالقول لسيزر، الذي بقي طيلة الوقت صامتاً.

- قل للقاضي الشرعي دريد، أن ينهي الموضوع، بيوم أو يومين، استعن بمحام، وعليه أن يأتيني بقرار طلاقها إلى مكتبي

بنفسه بعد غد.

وصب الحاجب كؤوس الويسكي الثلاث، بعد أن وضع على الطاولة صحوناً، تحوي العديد من صنوف الطعام والمقبلات

ناولها كأس الويسكي، وبدوره أخذ سيزر كاسه، ورفعت الكؤوس، فكأنت مترددة، وتكاد تقول لا أشرب الويسكي ولاحظ سيزر ترددها وإحجامها ، فهمس في أذنها :

- سيغضب المعلم إن رفضت، ويأخذ عنك فكرة التزمت وتطير الوزارة.

اضطرت لشرب الويسكي، وشعرت بنار تلذع لسانها، لكنها اضطرت للبلع. نظرات ممدوح لا تفارق جسدها، من الأعلى للأسفل ومن الأسفل للأعلى، إنه يريد التهامها، بأسرع وقت، وبين فترة وفترة يحثها على إنهاء كاسها، وفرغت الكأس، فارتخت الأعصاب، وانطلق اللسان.

قال: ممدوح

- أنت صبية رائعة جميلة، لا تتمتعين بالحياة كما يفعل معظم الناس، عليك بتغيير حياتك للأروع، وأنا خير من يستطيع تغييرك

انسحب سيزر، معتذراً بذهابه إلى الحمام، لكن غيابه طال وقد شربت كاسا إضافية بعد ملاطفة ونجوى وتغزل بالعيون الرائعة.

ثم قال: لها :

ساريك معالم الفيلا، فتبتهجين وترتاحين

نهضت متناقلة وقد دار رأسها، فسندها بيده متابطاً ذراعها، ثم قادها إلى غرفة النوم تمنعت بلطف، لكنه قال: لها :

هذه الخطوة الأولى في طريق الوزارة، تتبعها خطوات

ولعبت الخمرة دوراً هاماً في تغييب العقل، فبرزت الغرائز، كخيول هائجة جامعة في البراري الواسعة، وكان ما كان.

كان سيزر، يراقب ما يجري من بعيد، فعلم أن مهمته قد تقدت بحذافيرها وللآخر.

عادا إلى الطاولة، بعد أن أصلحا من هندامهما. كأنت عيناها تبرقان من رغبة جاءتها على حين غرة، ومن حلم بالوزارة، سيتحقق بكل تأكيد، بعد الذي جرى.

وقال:ت في نفسها

يكفي عشر سنوات من الهجر والحرمان، وما قال:ه سيزر وممدوح، فيه الكثير من الحقيقة.

بعد يومين، أنجز محام كلفه سيزر إجراءات التفريق، لعلة غياب الزوج، ولم يكن المقدم ممدوح في حقيقته، سوى تاجر ثري، يتاجر بالحشيش والممنوعات والعملة المزورة، تقمص دور

ضابط أمن بمساعدة سيزر، الذي يعمل معه، واشترى لباساً لهذا الغرض.

بعد أيام من توكيله، مسلم المحامي لسيزر، قرار الحكم بالتفريق، الذي بدوره أعطى ممدوحاً نسخاً منه.

اتصل ممدوح بها، وقال:

تعالي لوحدك بسيارتك، لاستلام قرار الحكم، مبروك اصبحت حرة، فجهزي نفسك للوزارة.

الطاولة جاهزة من كافة اللوازم، وضيفها بسيجارة مطعمة بالحشيش، فاستعذبت طعمها، وشربا الويسكي احتمالاً بالخلاص، فكان الفرح، وأعيدت طقوس الحب في تلك الغرفة كما في المرة الأولى فكان التجاوب أكبر وأغزر، وأمرها أن ترسل نسخة بالبريد إلى بيروت، وإلى جامع التقوى بالذات، ومنه للشيخ حامد الأغبر، ليتبلغ ياسراً عن طريقه قرار الحكم وأرسلت نسخة أخرى إلى أبيه في الفيلا بالمالكي، كل ذلك بتخطيط مدروس بعناية ، لا تقل دهاء وخيانة، عما فعله زهير ويونس الخوخة.

وقد علم ولداها بأمر طلاقها من أبيهما ، فقضبا لكنها لم تبال بغضبهما، وراحا يبحثان عما وراء ذلك، فعرفا علاقتها بممدوح بشكل متأخر، بعد أن أمست تغيب خارج البيت في أكثر الأحيان.

فعالياها بقسوة فقال:ت لهما :

أريد أن أعيش حياتي، فابقيا عند جدكما، وعيشا حياتكما، وافعلا ما يحلو لكما ، أما أنا فسأبقى في بيت أهلي.

وصارت تلتقي في كل ليلة، في الفيلا بممدوح وتكررت طقوس الحب، كان قد أعجب بها، وهي في المحافظة وراء مكتبها ،

وطلبها من سيزر الذي قال: له :

إن من الصعب الوصول إليها.

فضحك ممدوح وقال:

لا يصعب على ممدوح شيء، فأنا أذكى من الشيطان

الذي أغوى حواء، وأخرج آدم من الجنة.

وكأنت تلك المسرحية الناجحة، والتي انطلت عليها في البدء بسهولة، ثم استعذبت الأمر، وانزلقت وتعادت إلى الرشوة والتزوير، وجمع المال عن طريق الفساد، وتطور

الأمر من الويسكي إلى الحشيش وأخيراً إلى الهيروئين، والكوكائين، ثم صارحها بما عمل من تمثيل، حتى وصل إليها عن طريق سيزر.

فقالت وقد هزمها الحشيش

نعم ما فعلت !

في هذا الوقت، كان زهير يبيع كل أملاك أبيه، دون أن يدري الأب بما يحدث، ويحول المال إلى عملة صعبة، فيستلمها يونس الخوخة، ويحولها بدوره إلى رومانيا، حتى إن زهيراً باع الفيلا

نفسها التي يسكنها أبوه واشترط في العقد أن التسليم يكون بعد ثلاثة أشهر، بحيث يكون هو قد غادر مع المال كله، إلى رومانيا، تاركا اياه المصيره، ومن قبل باع شقة الحلبوني ودارة المزرعة، وكل ما يملك أبوه باعه.

حدث رد فعل قوي لدى ولديها : كفاح، وثائر بعدما الما بقصة امهما كاملة. وجرى صراع عنيف بداخلهما، حتى فكرا مرة بعقابها، ولكنهما وجدا أنه لا يحق للابن أن يعاقب أمه مهما بلغت زلاتها ! إذن الأمر يحتاج لتفكير عميق، تدارسا الأمر فيما بينهما، فقال كفاح:

- لقد حرمنا من حنان الأب، عشر سنين ومن إهمال الأم وتهتكها مثل ذلك، ولم يكن لنا هدف نسعى إليه، كان أبونا رجل مبادئ، ويعشق العدالة والحرية، لكنه لجا للوسيلة الخطاء ولعب مع الذئاب، فضاع في وادي الذئاب، واستنجد بالكتب فضاع بين متونها وحواشيها ، ولم يعرف حسن الاختيار وأعمال الحكمة، وأخذه التهور، فظن أنه في أعلى مراحل الثورة والتمرد الذي سيوصله للمدينة الفاضلة التي حلم بها.

وأخذتنا نحن الشبكة العنكبوتية، ومواقع التواصل فيها فنمنا ولم ننتبه لما حولنا، ولما صحونا وعاد لنا الوعي رجعنا للجذور، وتمسكنا بالوطن. وكان التدين هو الملاذ الأخير، في مثل هذه الحالات. وفي هذه الحياة القاسية، انهدرت سمعة بيتنا

وأسرتنا للحضيض، وأبي لا يعرف من الأمر شيئا، وجدنا ضعيف وقد أصابه الكبر، ووقع بخدعة يونس الخوخة، وخيانة ابنه زهير، وكي تسترد سمعتنا بين الناس، ونثبت لأبينا أن النضال لا يكون بين الورق، ومع ذئاب تدين بالولاء للخارج، وبتنظيم يدار من الخارج المصلحة دول، أو من وكيل يجيره لصالحه، ويدعي أن حزبه طهر نفسه بنفسه، وأنه مازال يعمل لرفع الظلم عن المضطهدين والمحرومين، وكل ذلك هراء وافتراء، لا يبقى لنا هدف إلا الجهاد الذي يحقق ذاتنا، ويرفعنا في نظر الناس درجات صادقين أوفياء عظماء وعند ربنا شهداء، ونثبت للجميع بأن التضحية بالأفعال لا بالأقوال

واقترح ثائر على كفاح، أن يذهبا للقتال في العراق، فهناك اقرب ميدان للجهاد، فهذا البلد قد وقع تحت ظلم كبير، واحتلت أرضه، وهدرت كرامة أبنائه، بأوهى الذرائع، وبحجة تحقيق

حرية بعد دكتاتورية، ومن الواجب الوقوف معه.

فقال كفاح:

- لكن من سيوصلنا إلى الأراضي العراقية.

هناك مواقع على الأنترنت تحض على الجهاد، وترشد من يرغب على الطريق، تعود هذه المواقع المجاهدين، وإذا اتصلنا

بالموقع سيرشدوننا خلال أيام.

واتصلا بالموقع، فجاءهما في اليوم التالي رجل كهل، لا تنم

لهجته عن انه سوري، تعرف إليهما ثم قال:

عليكما يا ولدى أن تجهزا نفسيكما للسفر خلال يومين

بعد يومين سافرا مع الرجل إلى مدينة البوكمال، ومنها عبرا الحدود إلى العراق، ووجدا من يدربهما قليلا، وانخرطا في صفوف المقاومين

ولما علم أبو ياسر جدهما بالخبر؛ وكانا قد تركا له رسالة

يقولان فيها :

لا تقلق علينا يا جدي ستسافر إلى العراق للجهاد وللقتال ضد المحتل، وربما نلاقي وجه ربنا قريباً ، فلا تحزن علينا سيكون استشهادنا مدعاة فخر لك، ولأبينا وأسرتنا التى

انهارت)

واصيب الجد بصدمة قاسية، شلت على أثرها قدماه، وعلم ابنه زهير بخبر شلله، قبل أن يغادر نهائياً، فعالجه أسبوعاً في المشفى ثم أدخله إلى دار السعادة) ، وهي دار ترعى العجزة، لقاء مبلغ سنوي، ودفع لهم المبلغ عن سنة، وودع أباه قائلاً: إنه سيسافر سفرة بعيدة، ثم يعود إليه:

وقال: الأب المفجوع في نفسه :

لكن لا يوجد أحد من قريب أو بعيد، يزورني فكيف

تتركني ؟

سيعتنون بك مثلي وأكثر... ثم غادر.

وصل قرار حكم التفريق إلى بيروت وسلم للشيخ حامد الأغبر الذي قراء وفهم فحواء فادرك الخيانة التي جرت وحزن وخاف على ياسر من صدمة شبيهة بالتي حدثت عقب سماعه نيا الحكم عليه بالإعدام فأخبر ياسراً بالأمر على دفعات، وكان ذلك النفسى خبر يسمعه ياسر في حياته، امتقع وجهه وكاد يغمى عليه،

ولاحظ الشيخ حامد ذلك فقال:

مون عليك يا بني المؤمن يؤخذ من مأمنه، ولكن كل مصيبة قابلة للاحتواء، قد يكون ذلك لخير لك لا تدركه، الله يعلمه

لم يكن ياسر يدري بما جرى مع والده، بسبب سفر ولديه للعراق، ولم يكن يعلم أن أخاه زهيراً، قد استولى على كل ثروة ابيه، ونقلها بواسطة يونس الخوخة إلى رومانيا، بل كان يعتقد أن ولديه بحضانة جدهما، وقد شبا عن الطوق وبلغا الأهلية، ومن حسن الحظ أنه لم يعلم بهذه الماسي دفعة واحدة، فربما كان قد صعق أو فلج، أو أصيب بالسكتة الدماغية. وكان قد انقطع كل اتصال مع أبيه وولديه الأسباب مجهولة منه، فيما بعد أدركها، وفهم أحداثها.

زار مدام جورجيت، فعندها يجد صدر الأم الحنون، وحكى لها

عن تطليق زوجته له، فهونت عليه وقالت:

ابدأ حياتك من جديد، ففي العمر متسع، لا تنتهي حياة الإنسان

ومستقبله، إلا بالموت، مازلت في عز النضج، إن ما فعلته سارين خيانة وأنت لست بحاجة إلى زوجة خائنة، ارتاح قليلا للمواساة.

ولما خطر بباله جواد شبروم، وكان يريد لقاءه والتحدث معه، قال:ت له مدام جورجيت

لقد غادر البنسيون، ولا أدري أين سكن، ربما ذهب إلى القتال في العراق مع الذاهبين.

تعجب من قولها. كيف يغامر ذلك الحلاق الكهل، والسياسي الغر، والمعجب بشخصية الزعيم الذي غاب إلى أتون معركة لا يعرف لها قرار، وليس له بالأصل قدرة على القتال، أو علم بفنون الحرب

ثم قال: في نفسه : (ربما يكون الأمر إشاعة)

وذهب في اليوم التالي، إلى صالون ناصر للحلاقة، بتفرع جادة أبي الدرداء، فعثر على مكان الصالون، لكنه لم يجد جواد شبروم، ومن وراء كرسي الحلاقة، شاهد شاباً متأنقاً هو حلاق الصالون أو الوكيل فقال: له :

هل السيد جواد شبروم موجود. أليس هو صاحب الصالون؟

- من حضرتك؟

أنا سوري وصديقه، أريد رؤيته لأمر، وقد سمعت انه ذهب للجهاد في العراق.

نظر إليه الشاب مبتسماً وقال:

معلمي لا يجاهد بل يجادل، إنه مدعو لوليمة عند أبي أحمد الدقن بمناسبة ختان ابنه أحمد.

في المساء حكى ياسر للشيخ حامد، قصة جواد شيروم، قال: الشيخ

الأزمات والمحن، تظهر معادن الرجال لذلك يا بني، لا تحكم على شخص مسبقاً، ولا لاحقاً من كلامه وجداله، إنما تتبع سيرته وأعماله. لكل امرئ ما نوى.

في صباح اليوم التالي، قرأ ياسر في جريدة سورية تصل لمكتبه، أن مرسوم عفو عام صدر في سوريا عن كل المحكومين السياسيين، وعن كل الجرائم.

في البدء لم يصدق الخبر، فاتصل بأحد المحامين بدمشق ويدعى عمار المغربي، يسأله عن حقيقة الأمر وجليته، فأكد المحامي صحة الخبر، وحكى ياسر قضيته بشكل مختصر للمحامي، فقال: له المحامي

أنت مشمول بالعفو، لكن يقتضي الأمر حضورك، المكتبي لنسحب صك الملاحقة، ونحصل على صك كف الملاحقة، عندها لن يوقفك أي حاجز وستعيش في بلدك حراً طليقاً.

لم تعد الدنيا تسع ياسر، فرح فرحاً عظيماً، عوضه قليلا عن خيانة سارين، وتمنى لو يخبر كل من يعرف بذلك، وكل من لا يعرف، واتصل بأبيه وولديه، لكن الهاتف لا يرد أبداً، سيعرف

السبب عندما يصل دمشق، وأخبر مدام جورجيت والشيخ حامد الأغبر، وأصدقاءه ففرحوا جميعاً لفرحته.

أما أبو أرز، فقد قال: له:

نذهب غداً إلى دمشق، بالطريق السرية نفسها بين الجبال ثم نصل مكتب المحامي بدمشق، الذي تكلمت معه، لنقف بشكل أكيد على حقيقة الأمر، وبعد ذلك يقوم هو بالإجراءات التي حددها علينا الحذر القضية ليست سهلة، أنت محكوم بالإعدام.

وذهبا معاً عبر تلك الطرق الجبلية، التي اجتازاها يوم احتضار أمه وموتها. ووصلا دمشق ومنها لمكتب المحامي عمار، وعرض ياسر الأمر أمامه مجدداً، فأكد له شموله بالعفو، وخرجا معاً إلى النيابة العامة، فحصل على كف ملاحقة، وأصبح ياسر حراً طليقاً غير مطلوب.

بعد أن خرجا من مكتب المحامي، قال لأبي أرز:

علي أن أزف الخبر إلى أبي، فيفرح أيما فرح.

فيمم شطر المالكي، وهو يعلم أن أباه قد تقاعد وترك أعماله لأخيه زهير.

طرق باب الفيلا، فخرج رجل غريب، لا يعرفه. قال: الغريب

نعم ماذا تريد؟

ماذا أريد ؟ ! هذا بيت أبي أنا ياسر الخوخة.

قال الرجل:

لقد باع ابنه زهير الفيلا لي، وأنا مالكها الآن، وإذا أردت اريك صك الملكية. أبوك الآن في دار السعادة بعين الكرش.

لماذا هو هناك؟

لا أدري، سمعت أنه مقعد على كرسي بعجلات.

دار رأس ياسر، وكاد أن يفقد اتزانه ولم يصدق ما جرى ولمحه أبو أرز بهذه الحالة المزرية، والحزن العظيم فقال:

هون عليك، لتذهب إلى دار السعادة ونتحقق من الأمر.

ودخلا دار السعادة، وعرف ياسر مديرها بنفسه، وسأله عن أبيه، فقيل له انه في الغرفة رقم / ١٣/. ولما التقاه هناك، وجده على اسوا حال ضعف جسده، وأهرم ووضع على كرسي متحرك له عجلات، فانكب عليه معانقاً، وبكى الأب، وقال: لياسر:

أترى كيف فعل بي زهير؟ لقد باع كل عقاراتي، وأخذ أموالي وسافر مع يونس الخوخة، إلى رومانيا، وتركني مقعداً على هذا الكرسي.

استرد ياسر اتزانه وقال:

لا عليك يا أبي، سأعوضك عن كل ما فقدت، المهم أن تعود معافى وبصحة كاملة.
وجلس هو وأبو أرز قربه، يتسامران

فسأل ياسر أباه عن كفاح وثائر فقال: له :

تركا لي رسالة، تفيد أنهما ذهبا للعراق من أجل الجهاد.

كأنت صدمة في سلسلة صدمات متلاحقة ومتكررة، أنت على كل فرحته، التي كسبها من العفو العام، تأمل قليلاً وقال لأبيه:

التغادر معاً إلى بيروت، لكن قبل ذلك لابد من زيارة قبر امي وقراءة الفاتحة، ووضع إكليل زهر على قبرها، هيا بسرعة يا أبا أرز

اشتريا الزهور، وحمل أباه بمساعدة أبي أرز ودخلا المقبرة.

هدوء اعقبه خشوع وحزن، وضع الزهر على القبر، وقال: مناجياً أمه بصوت متهدج: (لقد فعل الزمن بعدك بنا ما فعل، كثر الخونة والخوان، من حسن الحظ أنك لم تعيشي عصر الخيانة، كما نعيش الآن.

قرؤوا جميعاً الفاتحة، وغادروا المقبرة.

وعندما وصلت سيارة أبو أرز إلى باب المحافظة، قال: ياسر:

توقف قليلاً، سالمن تلك الخائنة درساً، لن تنساه.

دخل مبنى المحافظة، وسأل عنها فقال:وا له: إنها في السجن هي

وسيزر، بتهمة اختلاس وتزوير شيكات.

فعاد وهو يقول في نفسه :

القد عاقبها الله شر عقاب، بما خأنت و اختلست)

ثم سافروا جميعاً إلى لبنان بطريق مشروع هذه المرة، ووصلوا بيروت، وانزل أباه في بيته، مع كرسيه المتحرك، وخصص له سريراً، إلى جانب سريره

وبعد أسبوع، أدخله للعلاج في إحدى مشافي بيروت، وبعد فترة تحسن وضعه الصحي، وصار يمشي مستعيناً بعكاز، وأصرت مدام جورجيت، بعدما علمت بكل التفاصيل، واطلعت على حاله في المشفى، أصرت على نقله إلى شقتها، لأن ياسر سيكون مشغولاً

بالجريدة طيلة اليوم، ولأن الخادمة بهيجة، ستشرف على خدمته في كل لحظة، كما أنها هي بدورها ستواسيه بالكلام والعناية والاهتمام. وأعطته الغرفة التي شغلها ياسر منذ زمن، وهي غرفة تقابل غرفتها.

عادت له عافيته واستعذب جلسات المدام وحديثها في الحديقة، وقطفت له الورود، فتحركت فيه عواطف، ظن أنها اصبحت حطباً، ولكن يبدو أن الحب يرافق الإنسان حتى النهاية، إذا وجد البيئة الملائمة، مثل نبتة توفر لها الماء والضوء والعناية.

وبدوره صار أبو ياسر يهدي جورجيت الورود، وباح لها بالحب فيما بعد، حيث تمكنت تلك العاطفة من قلبيهما، وكانه في بداية الشباب، فقابلته بروح مرحة، وكأنها في العشرين، قال:ت له :

- لقد خلق الله المعاناة، حتى تظهر السعادة من خلال نقيضها.

فإنه يظل مخفيا.

وقد زاد الحب نضارتها وتألقها، ونشأت بينهما عاطفة من نوع ما، سببها عطش عاطفي، واحتياج كل منهما للآخر. تطورت مع الوقت إلى ألفة، ثم إلى حب مشترك ومتبادل، وتأكد لياسر أن الحب لا يقف عند حد أو زمن، وأنه لا يمكن إخفاؤه، ولاحظ ياسر ذلك كله، فكان هذا من مدعاة سروره، ومع الأيام صار مشيه طبيعياً، مع عرج خفيف وكان يذهب إلى النادي مع مدام جورجيت، وإلى بعض مسابح بيروت، فاندمج بالمجتمع وعادت إليه الثقة، ووجدت جورجيت أن ما ينقصه هو الانغمار في الحياة، بعد أن عاش ردحاً في حياة هامشية، فحثته على العمل ومزاولة مهنته السابقة في بيروت وأنتهى الأمر بزواجه من جورجيت

وكان ياسر، منذ وصولهما بيروت، قد عرفه على الشيخ حامد الأغبر، فانس كل منهما للآخر وتوطدت بينهما أواصر الصداقة، فكان لا يفارقه إلا عندما يلتقي بجورجيت تناقشا كثيراً بأمور الدين والدنيا. فقال: له الشيخ مرة:

- يقبع الكون كله داخل كل إنسان (في داخلك كل شيء تراه حولك) ، بما في ذلك الأشياء التي لا تحبها، حتى الأشخاص الذين لا تحبهم، أو تحتقرهم، يقبعون في داخلك بدرجات متفاوتة لذلك لا تبحث عن الشيطان خارج نفسك، فالشيطان ليس قوة

خارقة تهاجمك من الخارج، بل هو صوت عادي، ينبعث من داخلنا ، فإذا تعرفت على نفسك تماما، فإنك ستبلغ أرقى أشكال الوعي. لم ترشدني الشريعة إلى ذلك، لقد قرأت ذلك في كتابات الرومي، فاقتنعت بها.

وقال أبو ياسر لزوجته جورجيت:

من حسن الحظ، أنني وضعت مبالغ في مصرف سويسري، لم تطالها يد ابني زهير، سأبدأ مشروعي بها هنا.

هذه فكرة صائبة، كنت قد طرحتها عليك، فلنبدأ بتنفيذها الآن.

واستاجر دكاناً في مركز هام من بيروت، واستورد ساعات وادوات كهربائية، كما كان يفعل في سوريا، أي عاد لمهنته السابقة. وحقق نجاحا بمساعدة جورجيت، التي طورت من أساليبه القديمة في البيع، فعاد ثريا بوقت قياسي.

في أحد الأيام، ذهب ياسر إلى الشيخ حامد في داره كان منشغل البال على ولديه، اللذين أعطياه درساً، لم يستطع استيعابه إلى الآن. كان مندهشاً من طاقة إيجابية جريئة، لا يعرف كيف اكتسباها، ولا من أين أنتهما ، إنها طاقة اقتحامية وجهادية، لم يكن هو أو سارين يملكانها ، ولا حتى أحد من أسرتيهما الذين امتهنوا التجارة، وداروا مصالحهم. لاشك أنهما فكرا طويلاً، وآمنا بعمق بأهداف يجهلها ، ولا يمكن أن تكون رد فعل وقتي

لا يلبث أن يخمد ، فأي أيديولوجية اعتنقا، وأي فكر دافع وعدواني حركهما، حتى فعلا ما فعلا؟ !

قال الشيخ حامد :

أراك منشغل البال، موزع النفس، مهموماً.

ولداي الغائبان، شغلا تفكيري، وشلا حركتي وحيونتي.

- إذا أردت أن تغير طريقك القديم، وقد وجدته يؤدي إلى

جدار، وافق مسدود فيجب أن تغير الطريقة التي تعامل فيها نفسك، إذا لم تتعلم كيف تحب نفسك حبا كاملا صادقا ؛ فلا توجد وسيلة أخرى للتغيير، وإذا بلغت تلك المرحلة ونجحت، فإنك ستشكر كل شوكة القاها عليك الآخرون، لأن هذا يدل على أن الورود ستنهمر عليك قريبا.

إنني أبحث عن الله، وقد كنت غائباً عن حقيقته.

عليك أن تبحث عنه في داخلك، فإذا سافرت في داخلك فسيكون بوسعك اكتشاف ما تبحث عنه، إنه أقرب إلينا من حبل الوريد. لا تجزع من الألم فالحب لا يكتمل إلا بالألم، إن الشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات لا يمكن إدراكه إلا بالصمت، وما تبحث عنه، لا يدرك إلا بالتأمل العميق لظاهرة الخلق. تعال لنجلس تحت الشجرة، سأسند لك مهمة، علها تنسيك احزانك.

جلسا تحت شجرة زيزفون.... كان الهواء معطراً ونقياً، فقال:

للشيخ حامد :

اصبحت يا مولانا ملاذي الوحيد، أشكو إليك همي فتهدهد أحزاني، ولولا صحبتك لأصابني الاكتئاب

هون عليك يا بني، كل شيء يمكن إصلاحه ويمكن دوماً البدء من جديد عندما نخسر أمراً هاماً أو جزءاً من حياة لا يكون ذلك نهاية المطاف لأينتهي الإنسان إلا بخسرانه الأمل.

وإنني يا ياسر، أطلب منك معروفاً أرجو تحقيقه:

أنتي جاهز لكل ما تطلب.

ابنتي خزامى ستقدم البكالوريا في هذا العام، حبذا لو لقنتها دروساً من المنهاج، لأن التفوق له دور في اختيار اختصاصها مستقبلاً.

انا جاهز لإعطائها من الآن إذا أحببت.

نهض الشيخ وغاب قليلاً، وأحضر ابنته خزامى وقال:

سأترككما هنا، وأذهب إلى المسجد ، وأعود بعد ساعتين.

كأنت خزامى ابنة الشيخ في الثامنة عشر من عمرها، صبية ريانة طويلة متناسقة، بشرتها بلون الحليب النقي، وعيناها كبيرتان سوداوان فيهما حور، تشعان ذكاء، وحيوية كأنت تلبس ثوباً بنفسجياً أنيقاً وتضع على رأسها (إيشارباً) أبيض يعطيها ملامح أكثر براءة وطهراً، يا لطلتها الأسرة !

قال: ياسر ذلك في نفسه مندهشاً من جمالها الجارح، كان يظن أنها ستظهر مسريلة بالأسود، من رأسها لأسفل قدميها، على عادة بعض المتشددين من الشيوخ، لكنها كأنت في لباسها عصرية وانيقة، سلم عليها دون أن يمد يده المصافحتها خوف الإحراج ففوجئ بها تمد يدها لتصافحه، مصافحة الرجال وبقوة وثقة.

جلست قبالته على كرسي، وقالت:

تحملني لبعض الوقت، وساعدني بتفهم ما صعب علي من الدروس. أما الآن فلندع هذه الحصة من الوقت للتعارف، أنا خزامي

الأغبر، فماذا تريد أن تعرف عني؟

خزامى اسم جميل (وهو اسم زهرة رائعة كما أعتقد !

هل تعرف أكثر عن تلك الزهرة؟

لا بودي لو تعرفينني أكثر.

هي زهرة مميزة، ليس لها مثيل غامضة تحرك المشاعر

بعطرها المنعش، وشذاها الفواح أريجها العبق يثير العواطف والذكريات الجميلة، عندما تسخن الشمس، تفرز غددها رائحة عطرية مع زيت ثمين حير العقول، لذلك فهي محاطة بالغموض عرفها المصريون، وأدخلوها بالطب، وعرفها الفينيقيون، فعطروا بها أجسادهم، وحملها الرومان معهم في المعارك. توصف بأنها نبتة النظافة والهدوء، وأزهارها تدخل السعادة إلى النفوس.

انبهر ياسر من وصفها، ومن معرفتها الواسعة لاسمها. ابتسم

وتأمل مطرقاً، فقالت:

بم تفكر؟ إن لكل امرئ من اسمه نصيب، أليس كذلك؟

نعم إن ما تقولينه صحيح، فأنت الخزامى الحقيقية، وقد

تجسدت بصبية رائعة !

- لقد عرفت الكثير عني، فعرفني بذاتك؟

- انا ياسر الخوخة، والخوخ فاكهة معروفة، لا حاجة للاستفاضة بشرحها.

أنا أحب الخوخ

قال:ت ذلك بضحكة ذات معنى ورشقته بنظرة أذابت الجليد عن قلبه.

وتشعب الحديث بعد ذلك، عن قراءاتها وأفكارها، وعن نظرتها للحياة، فقال:ت له بعد ما أبدى اندهاشاً نحوها :

لا تستغرب ولا تندهش في مكتبة أبي روايات تظن أنت أن الشيخ لا يقرأها ، لقد قرأ روايات حديثة عربية واجنبية، و يحفظ بعضا من أشعار عربية وحتى أجنبية، وكان يقرأ في كل أسبوع رواية من (مكتبة الأفق الواسع) ، لصديقه الذي مات وتحولت مكتبته إلى كازينو.

أحب ياسر خزامى، وفتن بها، إنه سحر الاندهاش والمفاجاة !

الآن يعرف معنى مقولة، الحب من أول جلسة. بل ربما من أول نظرة. تمنى في قرارة نفسه لو كان الفارق الزمني بينهما معدوماً ،

أو كانا مثلاً ما يزالان على مقاعد الدرس زميلين.

ثم قال: في نفسه :

ما أروع البدايات الجديدة، إذا رافقتها أزهار الخزامي.

صحا من حلم وردي ذهب به بعيداً بعيداً، ومن شطحات ارتفعت به إلى الغيم، فرأى الكون جميلاً مشرقاً، فقال: لها :

غداً نبدأ الدروس معاً، وتبدأ الحياة.

تذكر زميلته في الجريدة جويل الناصوري الناضجة الأعلى مراحل النضوج التي تعجب العقل، وتحركه، وتذكر إعجابه بها، من أول جلسة أيضاً. يومها انبهر العقل، وشدته مأساتها، وها هي الخزامى الآن، تسحره بنوع آخر من السحر، يشبه رائحة الأرض غب المطر، أو طزاجة السهوب والبراري. كان النساء كالورود، لكل نوع شنا يا لغرابة الإنسان يصعب تفسيره أحيانا تدهشه نفسه، فيتعجب منها الآن هو موزع بين اثنتين بل بين الروح والعقل، ثم قال: في نفسه:

(سأترك ذلك للقدر الذي هزئت منه يوماً، وها هو الآن يضحك بملء شدقيه)

ويوما ما قال:ت له جويل

إن صاحب الجريدة، يريد افتتاح محطة فضائية، وقد راجت هذه التجارة في هذه الأيام، ويريدنا أنا وأنت أن نكون مراسلي أخبارها في أسخن نقاط وطننا العربي... في العراق.

فقال: لها يومها :

لا استطيع ترك أبي المفرده، وقد تخلى عنه الجميع. الآن خيط آخر يشده للحياة والبقاء.

بدأت الحياة تحلو، لكن ما قيمة كل عاطفة مهما كان عتوها أو جموحها إزاء عاطفة الأبوة التي تنهزم أمامها كل العواطف. هل يمكن له أن يحب هنا، وينسى من يعانون في الجحيم، الأولاد فلذات الكبد، فهل يعقل تركهما بين أنياب

الوحش؟

تارجح بين جويل وخزامى من جهة، وبين ولديه في العراق من جهة ثانية. هل يتركهما المصير هما، ويغرق هو في الحب؟ سوف يونبه ضميره طوال حياته، إنهما يعيشان أفكارهما ومعتقداتهما.

أما هو ففي حالة انقسام في شخصيته وتفتت. لقد كان (دونكوشوتياً قياساً إلى ولديه، فأين ذهبت أيام النضال وخبرات الكفاح، ونقد الإمبريالية، وإذا لم يكن الأوان الآن أوان الكفاح والجهاد، فمتى يكون؟

كان يقول في نفسه :

(ماذا قدمت أنا للحياة غير الوهم، كأنت حياتي سراب خادع، أما ولداي فلقد عرفا معنى التضحية والفداء، وحب الوطن ومعنى الجهاد الحقيقي، أكثر مني، بغض النظر عن بواعثهما ودوافعهما ، كنت أكره أمريكا لرأسماليتها المتوحشة، وما زلت أكرهها لأفعالها العدوانية، ولازدواجية معاييرها، وكل أدبيات

حزينا تندد بالإمبريالية الأمريكية، وعندما غزتنا، وقفنا صامتين مكتوفي الأيدي، فيا لازدواجيتنا نحن ابل يا لجبننا .

بعد تأمل، قال في نفسه:

(ساذهب للبحث عن ولدي، ولكني احتاج لرفيق درب وطني مخلص)

وفطن بجواد شبروم، ظن أنه مترع بالوطنية، وها قد أن الوقت، ليفترن القول بالعمل، ولما التقاه في الصالون، اعتذر جواد

عن الذهاب قائلاً:

للحرب رجالها، وأما نحن فحرينا باللسان والنظارات، لم يبق لي إلا القليل لأصل إلى أرذل العمر.

غادر مهموماً، وشكا أمره للشيخ حامد الأغبر، ملمحاً برغبته في الذهاب للبحث عن ولديه، وكان يتوقع التشجيع من الشيخ، أو حتى استعداده للذهاب معه.

لكن الشيخ قال:

العراق الآن محتل، تموج فيه عصابات مسلحة، بعضها وطني والأكبر من صنع المحتل، أو طائفي، والسيارات المفخخة، تفاجئ الناس في مقاهيهم ومساجدهم وأماكن عملهم، تقتل من العراقيين الأبرياء أكثر مما تقتل من الأمريكان، فهل هذا جهاد؟

ثم من يقود الجهاد هناك، وما هدفه الثورة الجزائرية كان لها قادة ومنهج، قد يكون في العراق مجاهدين فرديين، وهم صادقون في جهادهم بلا شك، لكننا لم نجد قائداً، يلتف حوله الجميع

هناك زعماء عشائر تقليديون، وقد يستغلهم بعضهم لأهداف حزبية أو سياسية أو طائفية الوضع غامض، ولا راية الجهاد واضح، وقد قال: نبينا الكريم (من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو ينصر عصبة فمات مات ميتة جاهلية) ابق يا ولدي، وجاهد بقلمك، وإذا كتب لأولادك عمر، سيعودان إليك.

خرج من عنده غير مقتنع، لقد قرر الذهاب للعراق على الأقل الإنقاذ ولديه وفاتح زميلته في الجريدة، جويل الناصوري معربا عن رغبته بالسفر إلى العراق كمراسلين فقالت:

- كان صاحب الجريدة أنطون شركس، قد عرض علينا تغطية أخبار فضائيته في العراق، فرفضت أنت يومها ذلك.

هل مازال العرض قائما ؟

أظن نعم أنا مستعدة للذهاب معك للبحث عن ولديك.

ولكن كمراسلين للفضائية، لا كمقاتلين نغطي اخبارها الميدانية على أرض الواقع، ونبحث عن ولديك من خلال عملنا فيها، وقد تعثر عليهما، ونأتي بهما إن استطعنا.

جويل تريد أن تهرب من مأساتها التي مازالت تعيشها. لقد اغتيل

زوجها الذي أحبته حتى العبادة، ثم جاء ياسر، فعوض قليلاً لكن الحب الحقيقي غير ذلك. أرادت الهروب ربما هو شكل من أشكال الأنتحار، بل ربما تمنت لو تموت هناك لتلحق بمن أحبت عرضا الأمر على أنطون شركس، وحصلا على موافقته

وزودهما بالمال واللوازم وبسيارتين، وقال: لياسر

اختر سائقا تثق به واعتبره من عداد البعثة التلفزيونية وحدد له المرتب الذي يستحق

وقد عرض ياسر على أبي أرز فكرة مرافقتهما، فرحب أبو أرز، متحمسا للفكرة، بل أبدى استعداده للقتال هناك، لاسيما انه جندي سابق متدرب على القتال أبو أرز هذا أحب العراق ودكتاتوره فيما مضى، وخسر وظيفته بسبب ذلك من واش كاذب.. وأبدى ذلك أمام ياسر الذي قال: له يومها :

استغرب أحيانا يا أبا أرز افكارك، تحب نظاما ديكتاتورياً، ونحن في عصر ينادي الجميع فيه بالحرية.

أجاب أبو أرز يومها :

نحن لانفهم معنى الحرية الحقة، نحاول استيراد مفهوم الغرب لها ، فيبدو أكبر من قياسنا كفتى يرتدي ثياب جده. الغرب يتداول السلطة، وأحزابه تحترم بعضها، وعندنا كل فريق يحاول تحطيم الآخر بالمدى والطلقات، وإن لم يستطع فبتحطيم الكراسي على رأس الخصم الحرية هي تأمين الأمن ورغيف الخبز والكرامة، بواسطة حكومة مركزية عادلة وقوية، منبعثة من صميم الشعب الشعب بمعظمه لا يريد أكثر من هذا. في

العراق قبل احتلاله، كان هذا الشيء إلى حد ما متوفر، شابه شطط، كان يمكن إصلاحه بشتى السبل، لكن الحصار فاقم الأمور بدرجة لا تطاق. إذا كأنت مسيرتك، وطنية ستحارب، يجب أن يكون التغيير من الداخل، وبقدرات وطنية، أما أن يأتي التغيير

على ظهور دبابات أجنبية غازية، فهذه خيانة. إذا فرضت الديموقراطية الغربية في العراق سيتشظى العراق إلى دول وطوائف متناحرة، يصفي بعضها بعضا.

المشكلة؛ إن نقاط ضعفنا كثيرة، يستفيد منها الأجنبي فيغزونا، وإننا أحيانا نقدس الوسيلة على حساب الغاية، وما زالت ثارات الجاهلية، وأحقادها تعشعش في جيناتنا.

وافق أنطون شركس متخذاً قراره، بفتح مركز إرسال في المنطقة الخضراء، وزود جويل بمبالغ ضخمة، وجعلها رئيسة البعثة، ومعاونها ياسر الخوخة، مع سيارتين ومصور، ومشغل محطة إضافة إلى أبي أرز الذي سيقود إحدى السيارات ليكلف بمهام أخرى لاحقاً، وتوجهوا من لبنان إلى سورية للبحث عن أدلاء

والوصول إلى المنطقة الخضراء. لقد كأنت المهمة خطيرة جداً، ولم يحسباها كما يجب، فما المفاجآت التي سيتعرضون لها ؟

الجزء الثاني في رواية " في قبو الدير " اكتشفت الخبايا المذهلة.

المؤلف في سطور

معام سوري من مدينة حمص

مارس مهنة المحاماة لأكثر من سبعة وعشرين عاما، ورافع في مختلف المحاكم السورية بدأ حياته العملية ضابطا مطلها في الجيش العربي السوري، فقد تخرج من

الكلية الحربية بحمص برتبة ملازم عامل في عام ١٩٦٨

عمل عدة دورات قيادية، واشترك في حرب تشرين، ونال العديد من الأوسمة

عمل محاضراً ومدربا في الكلية الحربية مدة عشر سنوات

- استقال من الجيش بناء على طلبه برتبة مقدم، ليتفرع الدراسة القانون في جامعة دمشق وقد نال إجازة في الحقوق من تلك الجامعة لينتسب بعدها إلى نقابة المحامين بحمص وينال الأستاذية في القانون وذلك في خريف ١٩٨٧، حيث استمر بممارسة المهنة لأكثر من سبع وعشرين عاما

- كتب القصة منذ عام ١٩٦٤، لكنه تفرغ للرواية منذ عام ٢٠٠٨

من رواياته

1 أواخر الأيام - الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٦

- السوسن البري

احلام الذئاب

-1- مجامر الروث

ه الحب في زمن التحولات المدهشة

في قبو الدير اكتشفت الخبايا المذهلة

مكان إقامته الحالية - حمص المحطة

هاتف ارضي ٢١٦٨٨٨٠

موبايل - ٠٩٣٢٤٤٨٤٧

abdulghani_mallouk@yahoo.com
بريد الكتروني

أعجبت به لأنه مختلف وصريح، جدي وظريف.

ومن هنا بدأت صداقتهما. والإنسان يفتتن دائما بالفريد المتميز.

لم يكن ياسر ليهوى الغزل، على طريقة أبناء جيله. بل كان في هذا المنحى مجدداً أيضاً. هو فنان في مزج السياسة بالحب. ينتقل بينهما بخفة راقص على الجليد.

بدأ معها الحديث، بنقد المجتمع والاستغلال الاقتصادي، الممارس من البرجوازية على الفقراء، وعدم تكافؤ الفرص السائد، كأسلوب دُجّن الناس عليه فألفوه كشيء طبيعي، وعدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، لتفشي المحسوبية. ولأن نظرية الولاء قبل الكفاءة كانت سائدة؛ اضطرب المجتمع وساد الهدر وقلّ الإنتاج. وكان ينتقد العقلية الشرقية التي تعشق الأساطير، وتظنها من أسس الدين، وتخلط بين الأخلاق والعادات. ولا تفرق بين الدين وخرافة الآباء أو جهلهم. لذلك فإن هذه العقلية تحتاج إلى إعادة هيكلة. وأن الهدم يجب أن يسبق البناء، أما الحب فلا يمكن أن يزدهر بين كل هذه التناقضات، إلا إذا كان المحبون يعتنقون الأفكار نفسها.

Al-Yanabia
sweeden-stokholm
دار الينابيع